بسم الله الرحمن الرحيم وما توفيقى إلا بالله (١)

تفسير سورة آل عمران

وهى مدنية؛ لأن صدرها إلى ثلاث وثمانين آية منها نزلت فى وفد نجران، وكان قدومهم فى سنة تسع من الهجرة، كما سيأتى بيان ذلك عند تفسير آية المباهلة منها، إن شاء الله تعالى(٢)، وقد ذكرنا ما ورد فى فضلها مع سورة البقرة أول البقرة (٣) .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ (١) ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ (٣) مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ (٤)﴾

وقد ذكرنا الحديث الوارد فى أن اسم اللَّه الأعظم فى هاتين الآيتين: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، و﴿الٓمٓ .اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ عند تفسير آية الكرسى(٤) ،وتقدم الكلام على قوله: ﴿ الٓمٓ ﴾ فى أول سورة البقرة، بما أغنى عن إعادته،وتقدم الكلام على قوله: ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ فى تفسير آية الكرسى (٥).

وقوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ يعنى: نزل عليك القرآن ـ يا محمد ـ﴿بِالْحَقِّ﴾ أى: لا شك فيه ولا ريب، بل هو منزل من عند اللَّه عز وجل، أنزله بعلمه والملائكة يشهدون، وكفى باللَّه شهيداً. وقوله: ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أى: من الكتب المنزلة قبله من السماء على عباد اللَّه الأنبياء، فهى تصدّقه بما أخبرت به وبشرت، فى قديم الزمان، وهو يصدّقها؛ لأنه طابق ما أخبرت به وبشرت، من الوعد من اللَّه بإرسال محمد ﷺ، [وإنزال القرآن العظيم عليه].

وقوله : ﴿ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ ﴾ أى: على موسى بن عمران ﴿وَالإِنجِيلَ﴾ أى: على عيسى ابن مريم﴿مِن قَبْلُ﴾ أى: من قبل هذا القرآن ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ أى: فى زمانهما ﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ وهو الفارق بين الهدى والضلال، والحق والباطل، والغى والرشاد، بما يذكره اللَّه تعالى من الحجج والبينات، والدلائل الواضحات، والبراهين القاطعات، ويبينه ويوضحه ويفسره ويقرّره، ويرشد إليه وينبه عليه ـ من ذلك. وقال قتادة والربيع بن أنس: الفرقان ههنا القرآن. واختار ابن جرير أنه مصدر ههنا؛ لتقدّم ذكر القرآن فى قوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ وهو القرآن.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أى : جحدوا بها وأنكروها، وردّوها بالباطل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أى: يوم القيامة ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ أى : منيع الجناب عظيم السلطان ﴿ ذُو انتِقَامٍ ﴾ أى : ممن كذب بآياته ، وخالف رسله الكرام ، وأنبياءه العظام.

(١) هذا أول المجلد الثانى من المخطوطة الأزهرية.
(٢) الآية : ٦١ .
(٣) ص ٦٩ .
(٤، ٥) عند الآية (٢٥٥) من سورة البقرة .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه يعلم غيب السموات والأرض، لا يخفى عليه شيء من ذلك ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ أي: يخلقكم في الأرحام كما يشاء ، من ذكر وأنثى ، وحسن وقبيح ، وشقي وسعيد ﴿ لا إله إلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أي: هو الذي خلق، وهو المستحق للإلهية وحده لا شريك له ، وله العزة التي لا ترام، والحكمة والأحكام . وهذه الآية فيها تعريض بل تصريح بأن عيسى ابن مريم عبد مخلوق ، كما خلق اللَّه سائر البشر ؛ لأن اللَّه صوّره في الرحم وخلقه ، كيف يشاء ، فكيف يكون إلهاً كما زعمته النصارى ـ عليهم لعائن اللَّه ـ وقد تقلب في الأحشاء، وتنقل من حال إلى حال ؟! كما قال تعالى: ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾ [الزمر:٦] .

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾ ﴾

يخبر تعالى أن في القرآن آيات محكمات ﴿ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾، أي: بينات واضحات الدلالة، لا التباس فيها على أحد ، ومنه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم، فمن ردّ ما اشتبه عليه إلى الواضح منه، وحكَّم محكمه على متشابهه عنده، فقد اهتدى. ومن عكس انعكس؛ ولهذا قال: ﴿ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ أي: أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه ﴿ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ أي: تحتمل دلالتها موافقة المحكم، وقد تحتمل شيئا آخر من حيث اللفظ والتركيب، لا من حيث المراد .

وقد اختلفوا في المحكم والمتشابه ، فروى عن السلف عبارات كثيرة ، فقال ابن عباس : المحكمات ناسخه ، وحلاله وحرامه ، وحدوده وفرائضه، وما يؤمَن به ويعمل به. وعن ابن عباس أيضًا أنه قال: المحكمات [في] قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ [الانعام:١٥١] والآيتان بعدها، وقوله تعالى: ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ [الإسراء: ٢٣] إلى ثلاث آيات بعدها. رواه ابن أبي حاتم، وحكاه عن سعيد بن جُبَير. وعن سعيد بن جبير أيضا: ﴿ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ [يقول: أصل الكتاب، وإنما سماهن] أم الكتاب؛ لأنهنّ مكتوبات في جميع الكتب . وقيل في المتشابهات: [إنهن] المنسوخة، والمقدم والمؤخر، والأمثال فيه ، والأقسام، وما يؤمن به ولا يعمل به. رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. وقيل: هي الحروف المقطعة في أوائل السور، قاله مقاتل. وعن مجاهد: المتشابهات يصدق بعضها بعضاً. وهذا إنما هو في تفسير قوله: ﴿ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ ﴾ [الزمر: ٢٣]. هناك ذكروا: أن المتشابه هو الكلام الذي يكون في سياق واحد، والمثاني هو الكلام في شيئين متقابلين كصفة الجنة وصفة النار، وذكر حال الأبرار وحال الفجار، ونحو ذلك. فأما هاهنا فالمتشابه: هو الذي يقابل المحكم.

وأحسن ما قيل فيه الذى قدمناه، وهو الذى نص عليه محمد بن إسحاق حيث قال: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾: فيهن حجة الرب، وعصمة العباد، ودفع الخصوم والباطل، ليس لهن تصريف ولا تحريف عما وُضِعْنَ عليه. قال: والمتشابهات فى الصدق، لهن تصريف وتحريف وتأويل، ابتلى اللَّه فيهن العباد، كما ابتلاهم فى الحلال والحرام، ألا يُصرفْنَ إلى الباطل، ولا يحرَّفْن عن الحق.

ولهذا قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ أى: ضلال وخروج عن الحق إلى الباطل ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ أى: إنما يأخذون منه بالمتشابه الذى يمكنهم أن يحرّفوه إلى مقاصدهم الفاسدة، وينزلوه عليها، لاحتمال لفظه لما يصرفونه، فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه؛ لأنه دامغ لهم وحجة عليهم، ولهذا قال: ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ أى: الإضلال لأتباعهم، إيهاماً لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن، وهذا حجة عليهم لا لهم، كما لو احتج النصارى بأن القرآن قد نطق بأن عيسى [هو] ﴿ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ [النساء ١٧١] (١)، وتركوا الاحتجاج بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾[الزخرف: ٥٩]، وبقوله: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[آل عمران:٥٩] وغير ذلك من الآيات المحكمة المصرحة بأنه خلق من مخلوقات اللَّه، وعبد، ورسول من رسل اللَّه.

وقوله: ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ أى: تحريفه على ما يريدون. وقال مقاتل والسدى: يبتغون أن يعلموا ما يكون وما عواقب الأشياء من القرآن . وقد روى الإمام أحمد، عن عائشة قالت: قرأ رسول اللَّه ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلُو الأَلْبَابِ﴾ ـ «فإذا رأيتم الذين يُجَادلُون فيه فهم الذين عَنَى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُم (٢)». وروى الإمام أحمد: عن أبى أمامة ، عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ قال: «هم الخوارج»، وفى قوله : ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران : ١٠٦] قال : « هم الخوارج ». ورواه ابن مردويه . وهذا الحديث أقل أقسامه أن يكون موقوفاً من كلام الصحابى، ومعناه صحيح؛ فإن أوّل بدعة وقعت فى الإسلام فتنة الخوارج ، وكان مبدؤهم بسبب الدنيا حين قسم النبى ﷺ غنائم حُنَيْن، فكأنهم رأوا فى عقولهم الفاسدة أنه لم يعدل فى القسمة ! ففاجؤوه بهذه المقالة ، فقال قائلهم ـ وهو ذو الخُوَيْصرة بقر اللَّه خاصرته : اعدل فإنك لم تعدل ! فقال له رسول اللَّه ﷺ : « لقد خِبْتُ وخَسِرْتُ إنْ لَمْ أكن أعدل، أَيأْمَنُنى على أهل الأرض ولا تَأْمَنُونِى؟!». فلما قفا الرجل استأذن عمر بن الخطاب ـ وفى رواية: خالد بن الوليد ـ فى قتله، فقال: «دَعْهُ فإنه يخرج من ضِئْضِئِ هذا ـ أى: من جنسه ـ قوم يَحْقِرُ أحدكم صلاته مع صلاتهم ، [وصيامه مع صيامهم] ، وقراءته مع قراءتهم ، يَمْرُقُونَ من الدِّين كما يَمْرُقُ السهم من الرَّمِيَّة، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن فى قتلهم أجرًا لمن قتلهم » (٣). ثم كان

(١)وقع هنا فى المخطوطة والمطبوعة « روح الله » بدل « رسول الله » . وهو سبق قلم من الحافظ المؤلف. فليس فى القرآن أبدا وصف عيسى بلفظ « روح الله » . ولذلك غيرنا هذا الخطأ إلى الصواب الذى فى الكتاب العزيز .

(٢)نسبه الحافظ المؤلف هنا إلى كثير من طرقه فى الدواوين ، وساق بعض ألفاظهم ، والمعنى واحد ، وسنشير إلى أماكنه فيما عندنا منها : وهو فى المسند (٦/ ٤٨حلبى) ، ورواه الطيالسى (١٤٣٢، ١٤٣٣) والبخارى (٨/ ١٥٧ ـ ١٥٩ فتح) ومسلم (٢ / ٣٠٣ ، ٣٠٤) وأبو داود (٤٥٩٨) والترمذى (٤ / ٨٠) وابن ماجه (٤٧) وابن حبان فى صحيحه (٧٢، ٧٥) بتحقيقنا ، والطبرى (٦٦٠٥ ـ ٦٦١٥) . ورواه أيضا عبد الرزاق ، ومحمد بن يحيى العبدى .

(٣)الأحاديث فى معناه كثيرة يطول ذكرها . فانظر مثلا : صحيح مسلم (١ / ٢٩١ ـ ٢٩٥) والمسند (٦١٦) وابن حبان (٢٤) .

ظهورهم أيام على بن أبى طالب، وقتلهم بالنَّهْروان، ثم تشعبت منهم شعوب وقبائل وآراء وأهواء ومقالات ونِحَلٌ كثيرة منتشرة، ثم انبعثت القَدَرِيّة، ثم المعتزلة، ثم الجَهْمِيَّة، وغير ذلك من البدع التى أخبر عنها الصادق المصدوق ﷺ فى قوله: «وستفترق هذه الأمّة على ثلاث وسبعين فِرْقَةً، كلها فى النار إلا واحدة» قالوا: من هم يا رسول اللَّه ؟ قال: «من كان على ما أنا عليه وأصحابى» . أخرجه الحاكم(١) .

وقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلا اللَّهُ﴾: اختلف القراء فى الوقف ههنا، فقيل: على الجلالة، كما تقدم عن ابن عباس أنه قال: التفسير على أربعة أنحاء: فتفسير لا يعذر أحد فى فهمه، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها، وتفسير يعلمه الراسخون فى العلم، وتفسير لا يعلمه إلا اللَّه (٢). ويروى هذا القول عن عائشة، وعروة، وأبى الشعثاء، وغيرهم. وروى عبد الرزاق: كان ابن عباس يقرأ: «وما يعلم تأويله إلا الله، ويقول الراسخون آمنا به»(٣). وكذا رواه ابن جرير، عن عمر بن عبد العزيز، ومالك بن أنس: أنهم يؤمنون به ولا يعلمون تأويله. وحكى ابن جرير أن فى قراءة عبد اللَّه بن مسعود: «إن تأويله إلا عند اللَّه والراسخون فى العلم يقولون آمنا به». وكذا عن أبى بن كعب. واختار ابن جرير هذا القول.

ومنهم من يقف على قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾، وتبعهم كثير من المفسرين وأهل الأصول، وقالوا: الخطاب بما لا يفهم بعيد. وقد روى عن ابن عباس أنه قال: أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله. وقال مجاهد: والراسخون فى العلم يعلمون تأويله ويقولون آمنا به. وكذا قال الربيع بن أنس. وقال محمد بن جعفر بن الزبير: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾ الذى أراد ما أراد ﴿إلا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ ثم ردوا تأويل المتشابه على ما عرفوا من تأويل المُحْكَمَة التى لا تأويل لأحد فيها إلا تأويل واحد، فاتسق بقولهم الكتاب، وصدق بعضه بعضاً، فنفذت الحجة، وظهر به العذر، وزاح به الباطل، ودفع به الكفر. وفى الحديث أن رسول اللَّه ﷺ دعا لابن عباس فقال: «اللهم فَقِّهْهُ فى الدين وعلمه التأويل» (٤).

ومن العلماء من فصل فى هذا المقام، فقال: التأويل يطلق ويراد به فى القرآن معنيان، أحدهما: التأويل بمعنى حقيقة الشىء، وما يؤول أمره إليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠]، وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إلا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ [الأعراف: ٥٣] أى: حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد، فإن أريد بالتأويل هذا، فالوقف على الجلالة؛ لأن حقائق الأمور وكنهها لا يعلمه على الجلية إلا اللَّه عز وجل ، ويكون قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ مبتدأ ، و﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ خبره. وأما إن أريد بالتأويل المعنى الآخر ـ وهو التفسير والتعبير والبيان عن الشىء كقوله تعالى: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ [يوسف: ٣٦] أى: بتفسيره ـ فإن أريد به هذا المعنى، فالوقف على: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ لأنهم يعلمون ويفهمون ما خوطبوا به بهذا الاعتبار، وإن لم يحيطوا

---

(١) المستدرك (١ / ١٢٨ ، ١٢٩) من حديث عبد الله بن عمرو ، مع اختلاف قليل فى اللفظ .

(٢) مضى بنحوه فى المقدمة من رواية الطبرى .

(٣) إسناده صحيح ، وهى قراءة تفسيرية ، ليست على سبيل التلاوة . ولذلك حذف منها قوله : « فى العلم » وهذا هو الثابت فى ابن كثير مخطوطا ومطبوعا ، وكذلك فى الطبرى (٦٦٢٧) فى روايته من طريق عبد الرزاق، ولكن أخى السيد محمود زادها هناك ، على اعتبار أنها قراءة .

(٤) المسند (٢٣٩٧) من حديث ابن عباس ، وقد مضى أيضًا (١/ ٤٢) فى المقدمة . وانظر فتح البارى (١/ ١٥٥) .

علماً بحقائق الأشياء على كنه ما هى عليه، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ حالا منهم، وساغ هذا، وهو أن يكون من المعطوف دون المعطوف عليه، كقوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ﴾ الآية [الحشر: ٨ ـ ١٠]، وكقوله تعالى: ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[الفجر:٢٢] أى: وجاءت الملائكة صفوفاً صفوفاً.

وقوله إخباراً عنهم أنهم﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ أى: بالمتشابه ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ أى: الجميع من المحكم والمتشابه حق وصدق، وكل واحد منهما يصدق الآخر ويشهد له؛لأن الجميع من عند اللَّه ، وليس شىء من عند اللَّه بمختلف ولا متضاد، كقوله: ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُولُو الأَلْبَابِ﴾ أى: إنما يفهم ويعقل ويتدبر المعانى على وجهها أولو العقول السليمة والفهوم المستقيمة.وروى الإمام أحمد:عن عمرو بن شعيب،عن أبيه،عن جده قال: سمع رسول اللَّه ﷺ قوماً يتدارؤون فقال: «إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ضربوا كتاب اللَّه بعضه ببعض، وإنما نزل كتاب اللَّه ليصدق بعضه بعضاً، فلا تكذبوا بعضه ببعض، فما علمتم منه فقولوا، وما جهلتم فَكِلُوهُ إلى عَالمه» ورواه ابن مردويه(١). وروى أبو يعلى عن أبى سلمة قال: لا أعلمه إلا عن أبى هريرة، أن رسول اللَّه ﷺ قال:«نزل القرآن على سبعة أحرف، والمِرَاءُ فى القرآن كفر ـ قالها ثلاثاً ـ ما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه». وإسناده صحيح، ولكن فيه علة بسبب قول الراوى:«لا أعلمه إلا عن أبى هريرة » (٢). وروى ابن المنذر عن نافع بن يزيد قال: يقال: الراسخون فى العلم المتواضعون للّه، المتذللون للّه فى مرضاته، لا يتعاظمون من فوقهم، ولا يحقرون من دونهم .

ثم قال تعالى عنهم مخبراً أنهم دعوا ربهم قائلين: ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ أى: لا تملها عن الهدى بعد إذ أقمتها عليه ولا تجعلنا كالذين فى قلوبهم زيغ،الذين يتبعون ما تشابه من القرآن ولكن ثبتنا على صراطك المستقيم، ودينك القويم ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ ﴾ [أى:من عندك] (٣) ﴿رَحْمَةً﴾ تثبت بها قلوبنا، وتجمع بها شملنا، وتزيدنا بها إيماناً وإيقاناً ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾. وروى الإمام أحمد عن شهر ابن حوشب قال : سمعت أم سلمة تحدّث أن رسول اللَّه ﷺ كان يكثر فى دعائه أن يقول:«اللهم مقلب القلوب، ثبت قلبى على دينك» قالت: قلت:يا رسول اللَّه، أو إن القلوب لتتقلب؟ قال:«نعم، ما من خلق اللَّه من بنى آدم من بشر إلا أن قلبه بين أصبعين من أصابع اللَّه ، فإن شاء الله عز وجل أقامه، وإن شاء الله أزاغه». فنسأل اللَّه ربنا ألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة، إنه هو الوهاب . قالت : قلتُ : يا رسول اللَّه ، ألا تعلمنى دعوة أدعو بها لنفسى ؟ قال: « بلى، قولى: اللهم رب محمد النبى ، اغفر لى ذنبى ، وأذهب غَيْظ قلبى ، وأجِرْنى من مُضِلات الفتن ما أحييتنا » ثم رواه أحمد مختصرا ،بدون قوله : « فنسأل الله ربنا » إلخ ـ من رواية شهر بن حوشب أيضا، قال : « قلت لأم سلمة : يا أم المؤمنين ، ما كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذا كان

---

(١) المسند (٦٧٤١) .

(٢) رواه ابن حبان فى صحيحه (٧٣) بتحقيقنا ، عن أبى يعلى بإسناده . ورواه أيضا أحمد فى المسند (٧٩٧٦) ، وكذلك رواه الطبرى برقم (٧) . وفصلنا تخريجه فى تلك الكتب . وهو حديث صحيح ؛ لثبوته من غير هذا الشك .

(٣) الزيادة من المخطوطة الأزهرية .

عندك؟ . . .] (١). وروى ابن مردويه عن عائشة قالت: كان رسول اللَّه ﷺ كثيراً ما يدعو: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبى على دينك»، قلت: يا رسول اللَّه، ما أكثر ما تدعو بهذا الدعاء؟. فقال: «ليس من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن، إذا شاء أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه، أما تسمعين قوله: ﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾». غريب من هذا الوجه، ولكن أصله ثابت فى الصحيحين، وغيرهما من طرق كثيرة بدون زيادة ذكر هذه الآية الكريمة وروى عبد الرزاق عن أبى عبد اللَّه الصُّنَابحى، أنه صلى وراء أبى بكر الصديق المغرب، فقرأ أبو بكر فى الركعتين الأوليين بأم القرآن وسورتين من قصار المفصل، وقرأ فى الركعة الثالثة، قال: فدنوت منه حتى إن ثيابى لتكاد تمس ثيابه، فسمعته يقرأ بأم القرآن وهذه الآية: ﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا [وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ (٢).

وقوله: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ أى: يقولون فى دعائهم: إنك ـ يا ربنا ـ ستجمع بين خلقك يوم معادهم، وتفصل بينهم وتحكم فيهم فيما اختلفوا فيه، وتجزى كلا بعمله، وما كان عليه فى الدنيا من خير وشر.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ ﴾

يخبر تعالى عن الكفار أنهم وقود النار، ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥٢]، وليس ما أوتوه فى الدنيا من الأموال والأولاد بنافع لهم عند اللَّه، ولا بمنجيهم من عذابه وأليم عقابه، [بل] كما قال تعالى: ﴿وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ. مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧] كما قال ههنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: بآيات اللَّه وكذبوا رسله، وخالفوا كتابه، ولم ينتفعوا بوحيه إلى أنبيائه ﴿لن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ أى: حطبها الذى تسجر به وتوقد به، كقوله: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨]. وروى ابن أبى حاتم عن أم الفضل أم عبد اللَّه بن عباس قالت: بينما نحن بمكة قام رسول اللَّه ﷺ من الليل، فنادى: «هل بلغت؟، اللهم هل بلغت؟» ثلاثاً، فقام عمر بن الخطاب فقال: نعم. ثم أصبح فقال النبى ﷺ: «ليظهرن الإسلام حتى يردّ الكفر إلى مواطنه، ولَتَخُوضُنَّ البحار بالإسلام، وليأتين على الناس زمان يتعلمون القرآن ويُقرئونه، ثم يقولون: قد قرأنا وعلَّمنا، فمن هذا

(١) المسند (٦ / ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣١٥ حلبى) . وإسناده صحيحان . وقد اضطررت لإثبات الحديث من المسند ؛ لأن الحافظ ابن كثير ذكره هنا بأسانيد ، عن ابن أبى حاتم وابن جرير ، وابن مردويه ، واختلطت عليه الأسانيد ،، فجعلها أسانيد لحديث واحد رواه ابن أبى حاتم مختصرا ، من حديث شهر بن حوشب «عن أم سلمة وهى أسماء بنت يزيد بن السكن » . ولكن الصحيح أن شهرا رواه مختصرا عن أسماء ـ وهى صحابية ، كنيتها : أم سلمة ـ ورواه أيضا مطولا ومختصرا عن أم سلمة أم المؤمنين . فدخل على ابن كثير إسناد فى إسناد ، أو أسانيد فى أسانيد . وانظر تفصيل ذلك فى الطبرى (٦٦٥٠ ـ ٦٦٥٢ ، ٦٦٥٨) .

(٢) رواه عبد الرزاق عن مالك، وهو فى الموطأ (ص ٧٩) .

الذى هو خير منا ؟! فهل فى أولئك من خير؟» قالوا: يا رسول اللَّه، فمن أولئك؟ قال: «أولئك منكم وأولئك هم وقود النار». ورواه ابن مردويه بنحوه (١) .

وقوله : ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ قال ابن عباس: كصنيع آل فرعون. وكذا روى عن عكرمة، ومجاهد، وغير واحد، ومنهم من يقول: كسنة آل فرعون، وكفعل آل فرعون وكشبه آل فرعون، والألفاظ متقاربة. والدأب ـ بالتسكين، والتحريك أيضاً كنَهْر ونَهَر: هو الصنع والحال والشأن والأمر والعادة، كما يقال: لا يزال هذا دأبى ودأبك. والمعنى فى الآية: أن الكافرين لا تغنى عنهم الأموال ولا الأولاد، بل يهلكون ويعذبون، كما جرى لآل فرعون ومن قبلهم من المكذبين للرسل فيما جاؤوا به من آيات اللَّه وحججه. ﴿ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أى: شديد الأخذ أليم العذاب، لا يمتنع منه أحد، ولا يفوته شىء بل هو الفعال لما يريد، الذى قد غلب كل شىء ،لا إله غيره، ولا رب سواه.

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ ﴾

يقول تعالى: قل يا محمد للكافرين: ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ أى: فى الدنيا، ﴿وَتُحْشَرُونَ﴾ أى: يوم القيامة ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾. وقد ذكر محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة؛ أن رسول اللَّه ﷺ لما أصاب من أهل بدر ما أصاب ورجع إلى المدينة، جمع اليهود فى سوق بنى قَيْنُقَاع وقال: «يا معشر يهود، أسلموا قبل أن يصيبكم اللَّه بما أصاب قريشاً». فقالوا: يا محمد، لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال، إنك واللَّه لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا ! فأنزل اللَّه فى [مثل] ذلك من قولهم: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ إلى قوله : ﴿ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الأبصار ﴾. وقد رواه ابن إسحاق أيضاً، عن ابن عباس فذكره؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ أى: قد كان لكم ـ أيها اليهود القائلون ما قلتم ـ ﴿ آيَةٌ ﴾ أى: دلالة على أن اللَّه مُعِزُّ دينه، وناصر رسوله، ومظهر كلمته، ومُعْلٍ أمره ﴿فِي فِئَتَيْنِ﴾ أى: طائفتين ﴿الْتَقَتَا﴾ أى: للقتال ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهم المسلمون، ﴿ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ وهم مشركو قريش يوم بدر.

وقوله : ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ قال بعض العلماء ـ فيما حكاه ابن جرير: يرى المشركون يوم بدر المسلمين مثليهم فى العدد رأى أعينهم، أى: جعل اللَّه ذلك فيما رأوه سبباً لنصرة الإسلام عليهم. وهذا لا إشكال عليه إلا من جهة واحدة، وهى أن المشركين بعثوا عمر بن سعد يومئذ قبل القتال يَحْزِر لهم المسلمين، فأخبرهم بأنهم ثلاثمائة، يزيدون قليلا أو ينقصون قليلا. وهكذا كان الأمر، كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا، ثم لما وقع القتال أمدّهم اللَّه بألف من خواص الملائكة وساداتهم. والقول الثانى: أن المعنى فى قوله: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ أى : ترى الفئةُ المسلمة الفئةَ الكافرة مثليهم ، أى : ضعفيهم فى العدد، ومع هذا نصرهم اللَّه عليهم. وهذا لا إشكال فيه على ما روى عن ابن عباس أن المؤمنين كانوا

(١) إسناد ابن أبى حاتم إسناد صحيح .

يوم بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا، والمشركين كانوا ستمائة وستة وعشرين. وكأن هذا القول مأخوذ من ظاهر هذه الآية، ولكنه خلاف المشهور عند أهل التواريخ والسير وأيام الناس، وخلاف المعروف عند الجمهور من أن المشركين كانوا ما بين تسعمائة إلى ألف كما رواه محمد بن إسحاق، وغيره . وعلى كل تقدير فقد كانوا ثلاثة أمثال المسلمين، وعلى هذا فيشكل هذا القول والله أعلم. لكن وجه ابن جرير هذا، وجعله صحيحاً كما تقول: عندى ألف وأنا محتاج إلى مثليها، وتكون محتاجاً إلى ثلاثة آلاف، كذا قال. وعلى هذا فلا إشكال.

لكن بقى سؤال آخر وهو وارد على القولين، وهو أن يقال: ما الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى فى قصة بدر: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً﴾ [الأنفال: ٤٤]؟ فالجواب: أن هذا كان فى حال، والآخر كان فى حال أخرى، كما روى عن ابن مسعود فى قوله: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ﴾ الآية، قال : هذا يوم بدر . وقد نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يُضْعِفونَ علينا، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلا واحداً، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾. فعندما عاين كل الفريقين الآخر رأى المسلمون المشركين مثليهم، أى: أكثر منهم بالضعف، ليتوكلوا ويتوجهوا ويطلبوا الإعانة من ربهم، عز وجل. ورأى المشركون المؤمنين كذلك ليحصل لهم الرعب والخوف والجزع والهلع، ثم لما حصل التصاف والتقى الفريقان قلل الله هؤلاء فى أعين هؤلاء، وهؤلاء فى أعين هؤلاء، ليقدم كل منهما على الآخر .

﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً﴾ أى: ليفرّق بين الحق والباطل، فيظهر كلمة الإيمان على الكفر والطغيان، ويعز المؤمنين ويذل الكافرين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، وقال ههنا: ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ﴾ أى: إن فى ذلك لمعتبرا لمن له بصيرة وفهم، ليهتدى به إلى حكم الله وأفعاله، وقدره الجارى بنصر عباده المؤمنين فى هذه الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾

۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ربع
وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ﴾

يخبر تعالى عما زيّن للناس فى هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذ من النساء والبنين، فبدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد، كما ثبت فى الصحيح أنه، عليه السلام ، قال : « مَا تَرَكْتُ بَعْدِى فِتْنَةً أضرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ » (١) . فأما إذا كان القصد بهن الإعفاف وكثرة الأولاد ، فهذا مطلوب مرغوب فيه مندوب إليه ، كما وردت الأحاديث بالترغيب فى التزويج والاستكثار منه ، « وإنَّ خَيْرَ هَذِه الأُمَّة كَانَ أكْثَرَها نِسَاءً » (٢) ، وقوله عليه السلام : « الدُّنْيَا مَتَاع ، وخَيْرُ مَتَاعِها المَرْأةُ الصَّالِحَةُ ، إنْ نَظَرَ إلَيْها

(١) رواه أحمد فى المسند (٥ / ٢٠٠، ٢١٠ حلبى) ، والبخارى (٩ / ١١٨ فتح) ومسلم (٢/ ٣٢٠) ـ كلهم من حديث أسامة بن زيد .

(٢) من حديث ابن عباس. رواه أحمد (٢٠٤٨، ٢١٧٩ ، ٣٥٠٧) والبخارى (٩/٩٩ فتح) والحاكم (٢/ ١٦٠) .

obeikandi.com

سَرَّتْه، وإنْ أمَرَهَا أطاعَتْه، وإنْ غَابَ عَنْها حَفِظَتْه فى نَفْسِهَا وَمَالِه»(١)، وقوله فى الحديث الآخر : «حُبِّبَ إلَىَّ النِّسَاءُ والطِّيبُ ، وجُعِلَتْ قُرة عَيْنِى فِى الصَّلاَة»(٢). وحبّ البنين تارة يكون للتفاخر والزينة، فهو داخل فى هذا ، وتارة يكون لتكثير النسل وتكثير أمة محمد ﷺ ممن يعبد الله وحده لا شريك له، فهذا محمود ممدوح ، كما ثبت فى الحديث : « تَزَوَّجُوا الوَدُودَ الوَلُودَ، فَإنِّى مُكَاثِرٌ بِكُمُ الأُمَمَ يَوْمَ القِيَامَة» (٣). وحب المال ـ كذلك ـ تارة يكون للفخر والخيلاء والتكبر على الضعفاء،والتجبر على الفقراء،فهذا مذموم، وتارة يكون للنفقة فى القربات وصلة الأرحام والقرابات ووجوه البر والطاعات، فهذا ممدوح محسود عليه شرعاً. وقد اختلف المفسرون فى مقدار القنطار على أقوال، وحاصلها: أنه المال الجزيل، كما قاله الضحاك وغيره، وقيل: ألف دينار. وقيل: ألف ومائتا دينار. وقيل:اثنا عشر ألفا. وقيل: أربعون ألفا. وقيل :ستون ألفا . وقيل غير ذلك.

وحب الخيل على ثلاثة أقسام،تارة يكون ربطَها أصحابُها معدَّة لسبيل الله ، متى احتاجوا إليها غزَوا عليها، فهؤلاء يثابون. وتارة تربط فخرا ونوَاءً لأهل الإسلام، فهذه على صاحبها وزْر. وتارة للتعفف واقتناء نسلها ولم يَنْسَ حق الله فى رقابها، فهذه لصاحبها ستْر، كما سيأتى الحديث بذلك عند قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ [الأنفال: ٦٠] .

وأما ﴿الْمُسَوَّمَةِ﴾ فعن ابن عباس: المسومة الراعية، والمُطْهمة الحسَان، وكذا روى عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وغيرهم. وقال مكحول: المسومة: الغُرَّة والتحجيل. وقيل غير ذلك. روى الإمام أحمد: عن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ :«ليسَ مِنْ فَرَسٍ عَرَبِى إلا يُؤذَنَ لَهُ مَعَ كُلِّ فَجْرٍ يَدْعُو بِدَعْوَتَيْنِ، يَقُولُ: اللَّهُمَّ إنَّكَ خَوَّلْتَنى منْ خَوَّلْتَنى من بَنِى آدَم، فاجْعَلَنِى مِنْ أحَبِّ مَالِهِ وأهْلِهِ إلَيْه، أوْ أحَبِّ أهْلِه ومالِه إليه» (٤).

وقوله: ﴿وَالأَنْعَامِ﴾ يعنى: الإبل والبقر والغنم ﴿وَالْحَرْثِ﴾ يعنى: الأرض المتخذة للغرَاس والزراعة. روى الإمام أحمد: عن سُويد بن هبيرة، عن النبى ﷺ قال:«خَيْرُ مَال امرئ لَهُ مُهْرة مَأمُورة، أو سِكَّة مَأبُورَة » (٥) ، المأمورة الكثيرة النسل، والسِّكَّة: النخل المصطف، والمأبورة: الملقحة.

ثم قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى : إنما هذا زهرة الحياة الدنيا وزينتها الفانية الزائلة ﴿وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ أى : حسن المرجع والثواب . ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ ﴾ أى : قل يا محمد

---

(١) لم أجده حديثا واحدًا بهذا اللفظ . ويظهر أن الحافظ ابن كثير كتبه من حفظه. فأوله «الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة» ـ مضى فى ص ٣١٥ من هذا الجزء ، وأنه رواه أحمد ومسلم وغيرهما من حديث عبد الله بن عمرو. وباقيه رواه أحمد (٧١٤٥) « عن أبى هريرة سئل رسول الله ﷺ :أى النساء خير؟ قال: الذى تسره إذا نظر ، وتطيعه إذا أمر، ولا تخالفه فيما يكره، فى نفسها وماله». ورواه النسائى (٢/ ٧٢) والحاكم (٢/ ١٦١، ١٦٢)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبى. وروى أبو داود (١٦٦٤) نحوه بمعناه ، ضمن حديث لابن عباس، وذكر المنذرى أنه رواه ابن مردويه والحاكم وصححه على شرط الشيخين. وسيذكره الحافظ المؤلف عند تفسير (٣٤، ٣٥) من سورة التوبة.

(٢) من حديث أنس ، رواه أحمد (١٢٣٢٠ ، ١٣٠٨٩ ، ١٤٠٨٢) والنسائى (٢ / ١٥٦) والحاكم (٢ / ١٦٠) ، وصححه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى .

(٣) جزء من حديث ، عن معقل بن يسار ، رواه أبو داود (٢٠٥٠) والنسائى (٢/ ٧١) والحاكم (٢ / ١٦٢) وصححه . ولكن ليس عندهم كلمة : « يوم القيامة » .

(٤) المسند (٥/ ١٧٠ حلبى) والنسائى (٢ / ١٢١) . ورواه أحمد قبل ذلك مطولا بإسناد آخر ، وكلا الإسنادين صحيح.

(٥) المسند (١٥٩١٠) . وهو فى مجمع الزوائد (٥/ ٢٥٨) ، وقال : « رواه أحمد والطبرانى ، ورجاله ثقات».

للناس : أأخبركم بخير مما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من زهرتها ونعيمها، الذى هو زائل لا محالة؟ ثم أخبر عن ذلك، فقال: ﴿ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أى: تنخرق بين جوانبها وأرجائها الأنهار، من أنواع الأشربة؛ من العسل واللبن والخمر والماء وغير ذلك، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: ماكثين فيها أبد الآباد، لا يبغون عنها حولا، ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أى: من الدنس، والخبث، والأذى، والحيض، والنفاس، وغير ذلك مما يعترى نساء الدنيا ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أى: يحل عليهم رضوانه، فلا يسخط عليهم بعده أبدا؛ ولهذا قال فى الآية الأخرى التى فى براءة: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] أى: أعظم مما أعطاهم من النعيم المقيم، ثم قال: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أى: يعطى كلا بحسب ما يستحقه من العطاء.

﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ۝﴾

يصف تعالى عباده المتقين الذين وعدهم الثواب الجزيل، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا﴾ أى: بك وبكتابك وبرسولك ﴿ فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أى بإيماننا بك وبما شرعته لنا فاغفر لنا ذنوبنا وتقصيرنا من أمرنا بفضلك ورحمتك ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾. ثم قال: ﴿الصَّابِرِينَ﴾ أى: فى قيامهم بالطاعات وتركهم المحرّمات ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ فيما أخبروا به من إيمانهم بما يلتزمونه من الأعمال الشاقة﴿وَالْقَانِتِينَ﴾ والقنوت: الطاعة والخضوع ﴿وَالْمُنفِقِينَ﴾أى: من أموالهم فى جميع ما أمروا به من الطاعات، وصلة الأرحام والقرابات، وسد الخلات، ومواساة ذوى الحاجات ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ دل على فضيلة الاستغفار وقت الأسحار. وثبت فى الصحيحين وغيرهما من المسانيد والسنن، من غير وجه، عن جماعة من الصحابة، أن رسول الله ﷺ قال: «يَنْزِلُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِى كُلِّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرِ فيقولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فأُعْطِيَهُ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ له؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فأغْفِرَ لَهُ؟» الحديث (١). وقد أفرد الحافظ الدارقطنى فى ذلك جزءًا على حدة، فرواه من طرق متعددة.

وفى الصحيحين، عن عائشة قالت: مِنْ كُلِّ اللَّيْلِ قَدْ أَوْتَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، مِنْ أَوَّلِهِ وَأَوْسَطِهِ وَآخِرِهِ، فَانْتَهَى وِتْرُهُ إِلَى السَّحَرِ. وكان عبد الله بن عمر يصلى من الليل، ثم يقول: يا نافع، هل جاء السَّحَر؟ فإذا قال: نعم، أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح. رواه ابن أبى حاتم.

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۝﴾

(١) منها حديث أبى هريرة بهذا المعنى . رواه أحمد فى المسند (٧٥٠٠، ٧٥٨٢، ٧٦١١، ٧٧٧٩) والبخارى (٣/ ٢٥، ٢٦ فتح) ومسلم (١ / ٢١٠) وغيرهم . وحديث ابن مسعود رواه أحمد (٣٦٧٣) . وانظر كتاب التوحيد لإمام الأئمة ابن خزيمة (ص ٨٣ ـ ٩٥) وشرحنا للترمذى (٢ / ٣٠٧ ـ ٣٠٩) ومجمع الزوائد (١٠/ ١٥٣ ـ ١٥٥) .

شهد تعالى ـ وكفى به شهيدا، وهو أصدق الشاهدين وأعدلهم، وأصدق القائلين ـ ﴿ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ﴾ اى: المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق، وأن الجميع عبيده وخلقه، والفقراء إليه، وهو الغنى عما سواه كما قال تعالى: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ الآية [النساء:١٦٦]. ثم قرن شهادة ملائكته وأولى العلم بشهادته فقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ وهذه خصوصية عظيمة للعلماء فى هذا المقام ﴿ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ منصوب على الحال، وهو فى جميع الأحوال كذلك ﴿لا إِلَهَ إِلا هُوَ﴾ تأكيد لما سبق ﴿الْعَزِيزُ ﴾ الذى لا يرام جنابه عظمةً وكبرياء، ﴿الْحَكِيمُ ﴾ فى أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

وقوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ إخبار من الله تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به فى كل حين، حتى ختموا بمحمد ﷺ ، الذى سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد ﷺ ، فمن لقى الله بعد بعثة محمد ﷺ بدين على غير شريعته، فليس بمتقبل. كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥]. وقال فى هذه الآية ـ مخبراً بانحصار الدين المتقبل عنده فى الإسلام: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾. وذكر ابن جرير أن ابن عباس قرأ: «شهد الله إنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم . أن الدين عند الله الإسلام» بكسر ﴿ إِنَّهُ ﴾ وفتح « أن الدين عند الله الإسلام» أى: شهد هو وملائكته وأولو العلم من البشر بأن الدين عند الله الإسلام. والجمهور قرؤوها بالكسر على الخبر، وكلا المعنيين صحيح. ولكن هذا على قول الجمهور أظهر والله أعلم (١) .

ثم أخبر تعالى أن الذين أوتوا الكتاب الأول إنما اختلفوا بعد ما قامت عليهم الحجة، بإرسال الرسل إليهم، وإنزال الكتب عليهم، فقال: ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ اى: بغى بعضهم على بعض، فاختلفوا فى الحق لتحاسدهم وتباغضهم وتدابرهم، فحمل بعضهم بُغْض البَعْض الآخر على مخالفته فى جميع أقواله وأفعاله ، وإن كانت حقا، ثم قال تعالى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ اى: من جحد ما أنزل الله فى كتابه ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ فإن الله سيجازيه على ذلك، ويحاسبه على تكذيبه، ويعاقبه على مخالفته كتابه .

ثم قال تعالى: ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ ﴾ اى: جادلوك فى التوحيد ﴿ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ اى: فقل أخلصت عبادتى لله وحده، لا شريك له ولا ند له ولا ولد له ولا صاحبة له، ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ على دينى، يقول كمقالتى، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف:١٠٨].

ثم قال تعالى آمراً لعبده ورسوله محمد ﷺ أن يدعو إلى طريقته ودينه ، والدخول فى شرعه وما بعثه الله به ـ الكتابيين من الملتين والأميين من المشركين فقال : ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ﴾ أى : والله عليه حسابهم وإليه مرجعهم ومآبهم ، وهو الذى يهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ، وله الحكمة فى ذلك ، والحجة البالغة ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أى : هو عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلالة، وهو الذى ﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ

(١) ولكن هذه القراءة المنسوبة لابن عباس لم يروها الطبرى بإسناده ، بل صرح بأنها غير معلومة «برواية صحيحة ولا سقيمة » الطبرى (٦ / ٢٦٨) .

يُسْأَلُونَ﴾ [الانبياء:٢٣] ، وما ذاك إلا لحكمته ورحمته. وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته ﷺ ، إلى جميع الخلق، كما هو معلوم من دينه ضرورة، وكما دل عليه الكتاب والسنة فى غير ما آية وحديث، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الاعراف:١٥٨]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١] وفى الصحيحين وغيرهما، مما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة، أنه بعث كتبه ﷺ يدعو إلى الله ملوك الآفاق، وطوائف بنى آدم من عربهم وعجمهم ، كتابيّهم وأمّيّهم ، امتثالا لأمر الله له بذلك . وعن أبى هريرة، عن النبى ﷺ أنه قال:«والَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ، لاَ يَسْمَعُ بِى أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِىٌّ وَلاَ نَصْرَانِى، ومَاتَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِى أُرْسِلْتُ بِهِ، إلا كان مِنْ أَهْلِ النَّارِ» رواه مسلم.

وقال ﷺ :«بُعِثْتُ إِلَى الأَحْمَرِ والأَسْوَدِ»(١)، وقال:«كَانَ النَّبِىُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»(٢). وروى الإمام أحمد عن أنس:أن غلاما يهوديا كان يَضع للنبى ﷺ وَضُوءه ويناوله نعليه، فمرض،فأتاه النبى ﷺ فدخل عليه وأبوه قاعد عند رأسه،فقال له النبى ﷺ : «يا فُلاَنُ،قُلْ: لاَ إله إلا الله» فَنَظَرَ إِلَى أبيه ، فَسَكَتَ أَبُوهُ، فأعَادَ عَلَيْهِ النَّبِىُّ ﷺ ، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ، فَقَالَ أَبُوهُ : أَطِعْ أبا الْقَاسِمِ ، فَقَالَ الْغُلاَمُ : أَشْهَدُ أن لا إِلَهَ إلا الله وأَنَّكَ رَسُولُ الله ، فَخَرَجَ النَّبِىُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ : « الْحَمْدُ لله الَّذِى أَخْرَجَهُ بِى مِنَ النَّارِ» أخرجه البخارى(٣) . إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ۝ ﴾

هذا ذم من الله تعالى لأهل الكتاب فيما ارتكبوه من المآثم والمحارم فى تكذيبهم بآيات الله قديماً وحديثا، التى بلغتهم إياها الرسل، استكباراً عليهم وعناداً لهم، وتعاظما على الحق واستنكافا عن اتباعه، ومع هذا قتلوا من قتلوا من النبيين حين بلغوهم عن الله شرعه، بغير سبب ولا جريمة منهم إليهم، إلا لكونهم دعوهم إلى الحق ﴿ويَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ وهذا هو غاية الكبر، كما قال النبى ﷺ : «الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وغَمْطُ النَّاسِ»(٤). ولهذا لما أن تكبروا عن الحق واستكبروا على الخلق، قابلهم الله على ذلك بالذلة والصغار فى الدنيا، والعذاب المهين فى الآخرة، فقال: ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أى: موجع مهين ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ

(١) من حديث رواه أحمد (٤ / ٤١٦ حلبى) من حديث أبى موسى الاشعرى ، وآخر فى المسند أيضا (٥/ ١٤٥) من حديث أبى ذر . ومعناه ثابت ضمن حديث عن جابر ، رواه مسلم (١ / ١٤٧) ، وآخر عن ابن عباس رواه أحمد (٢٢٥٦ ، ٢٧٤٢) .

(٢) معناه ثابت فى أحاديث وهذا اللفظ جزء من حديث جابر ، رواه البخارى (١/ ٣٧١ فتح) .

(٣) المسند (١٢٨٢١) والبخارى بنحوه (٣ / ١٧٦ فتح) .

(٤) رواه مسلم (١ / ٣٧) فى حديث عن ابن مسعود ، وبنحوه رواه أحمد (٣٦٤٤، ٣٧٨٩ ، ٤٠٥٨) والترمذى (٣/ ١٤٤ . ١٤٥) والحاكم (١ / ٢٦) ورواه أيضا أبو داود (٤٠٩٢) بنحوه ، فى حديث عن أبى هريرة. وقد مضى دون تخريج . و « غمط الناس » : الاستهانة بهم واستحقارهم .

﴿ وَهُم مُّعْرِضُونَ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۝ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۖ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝ ﴾

يقول تعالى منكراً على اليهود والنصارى، المتمسكين فيما يزعمون بكتابيهم اللَّذين بأيديهم، وهما التوراة والإنجيل، وإذا دُعُوا إلى التحاكم إلى ما فيهما من طاعة الله فيما أمرهم به فيهما، من اتباع محمد ﷺ ـ تولَّوا وهم معرضون عنهما . وهذا في غاية ما يكون من ذمهم، والتنويه بذكرهم بالمخالفة والعناد. ثم قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ أي: إنما حملهم وجرَّاهم على مخالفة الحق افتراؤهم على الله فيما ادعوه لأنفسهم أنهم إنما يعذبون في النار سبعة أيام، عن كل ألف سنة في الدنيا يوما. وقد تقدم تفسير ذلك في سورة البقرة (١) . ثم قال: ﴿ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أي: ثبَّتهم على دينهم الباطل ما خدعوا به أنفسهم من زعمهم أن النار لا تمسهم بذنوبهم إلا أياما معدودات، وهم الذين افتروا هذا من تلقاء أنفسهم وافتعلوه، ولم ينزل الله به سلطانا قال الله تعالى متهددا لهم ومتوعدا: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي: كيف يكون حالهم وقد افتروا على الله وكذبوا رسله وقتلوا أنبياءه والعلماء من قومهم، الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، والله تعالى سائلهم عن ذلك كله، ومحاسبهم عليه، ومجازيهم به؛ ولهذا قال: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾: لا شك في وقوعه وكونه ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ۖ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝ ﴾

يقول تعالى: ﴿ قُلِ ﴾ يا محمد، معظما لربك ، وشاكراً له ومفوضاً إليه ومتوكلا عليه: ﴿ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ ﴾، أي: لك الملك كله ﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ﴾، أي: أنت المعطي، وأنت المانع، وأنت الذي ما شئت كان وما لم تشأ لم يكن. وفي هذه الآية تنبيه وإرشاد إلى شكر نعمة الله تعالى على رسوله ﷺ وهذه الأمة؛ لأن الله حول النبوة من بني إسرائيل إلى النبي العربي القرشي الأمي المكي خاتم الأنبياء على الإطلاق، ورسول الله إلى جميع الثقلين الإنس والجن، الذي جمع الله فيه محاسن من كان قبله، وخصه بخصائص لم يُعْطِها نبياً من الأنبياء ولا رسولا من الرسل، في العلم بالله وشريعته وإطلاعه على الغيوب الماضية والآتية، وكشفه عن حقائق الآخرة ونشر أمته في الآفاق، في مشارق الأرض ومغاربها، وإظهار دينه وشرعه على سائر الأديان، والشرائع، فصلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين، ما تعاقب الليل والنهار. ولهذا قال تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ ﴾ الآية، أي: أنت المتصرف في خلقك، الفعال لما تريد، كما رد تبارك وتعالى على من يتحكم عليه في أمره ، حيث قال : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : ٣١] . قال الله تعالى رداً عليهم: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ

(١) يعني عند تفسير الآية رقم : ٨٠ .

درجات ﴾ الآية [الزخرف: ٣٢] أي: نحن نتصرف في خلقنا كما نريد، بلا ممانع ولا مدافع، ولنا الحكمة والحجة في ذلك، وهكذا نعطي النبوة لمن نريد، كما قال تعالى: ﴿اللهُ أعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رسالاته (١) ﴾ [الأنعام: ١٢٤] ، وقال تعالى: ﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء: ٢١].

وقوله: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي: تأخذ من طول هذا فتزيده في قصر هذا فيعتدلان، ثم تأخذ من هذا في هذا فيتفاوتان، ثم يعتدلان. وهكذا في فصول السنة: ربيعاً وصيفاً وخريفاً وشتاء.

وقوله: ﴿ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ أي: تخرج الحبَّة من الزرع والزرع من الحبة، والنخلة من النواة والنواة من النخلة، والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن، والدجاجة من البيضة والبيضة من الدجاجة، وما جرى هذا المجرى من جميع الأشياء ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: تعطي من شئت من المال ما لا يَعده ولا يقدر على إحصائه، وتقتر على آخرين، لما لك في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة.

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾

نهى الله، تبارك وتعالى، عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين، وأن يتخذوهم أولياء يُسِرُّون إليهم بالمودة من دون المؤمنين، ثم توعد على ذلك فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ﴾ أي: ومن يرتكب نهي الله في هذا فقد برئ من الله ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤]، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ إلى أن قال: ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١] وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١] .

وقال ـ بعد ذكر موالاة المؤمنين للمؤمنين من المهاجرين والأنصار والأعراب : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣].

وقوله: ﴿إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ أي: [إلا] من خاف في بعض البلدان أو الأوقات من شرهم، فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته، كما حكاه البخاري عن أبي الدرداء أنه قال: «إِنَّا لَنَكْشُرُ فِي وُجُوهِ أَقْوَامٍ وَقُلُوبُنَا تَلْعَنُهُمْ»(٢). وقال ابن عباس : ليس التقية بالعمل إنما التقية باللسان، وكذا قال أبو العالية، وغيره . ويؤيد ما قالوه قولُ الله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النحل : ١٠٦] . وقال البخاري : قال الحسن :

---

(١) قراءة ابن كثير المكي وحفص عن عاصم : (رسالته) بالإفراد . وقرأ باقي السبعة : (رسالاته) بالجمع ، وهي التي نثبت في المخطوطة في هذا الموضع .

(٢) « نكشر » ـ بسكون الكاف وكسر الشين ، من الثلاثي : من انكشر ـ بسكون الشين ـ وهو : ظهور الأسنان للضحك . وكاشره : إذا ضحك في وجهه وباسطه . قاله ابن الأثير .

التقية إلى يوم القيامة.

ثم قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أى: يحذركم نقمته، فى مخالفته وسطوته فى عذابه لمن والى أعداءه وعادى أولياءه. ثم قال تعالى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أى: إليه المرجع والمنقلب، فيجازى كل عامل بعمله. روي ابن أبى حاتم: عن عمرو بن ميمون قال: قام فينا معاذ بن جبل فقال: يابنى أود، إنى رسولُ رسولِ الله إليكم، تعلمون أن المعاد إلى الجنة أو إلى النار[1].

﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾

يخبر تبارك وتعالى عباده أنه يعلم السرائر والضمائر والظواهر، وأنه لا يخفى عليه منهم خافية، بل علمه محيط بهم فى سائر الأحوال والآنات واللحظات وجميع الأوقات، وبجميع ما فى السموات والأرض، لا يغيب عنه مثقال ذرة، ولا أصغر من ذلك فى جميع أقطار الأرض والبحار والجبال، ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أى: وقدرته نافذة فى جميع ذلك.

وهذا تنبيه منه لعباده على خوفه وخشيته، وألا يرتكبوا ما نهى عنه وما يَبْغضه منهم، فإنه عالم بجميع أمورهم، وهو قادر على معاجلتهم بالعقوبة، وإنْ انظر من أنظر منهم، فإنه يمهل ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر؛ ولهذا قال بعد هذا: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾، يعنى: يوم القيامة يحضر للعبد جميع أعماله من خير وشر كما قال تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة:١٣]، فما رأى من أعماله حسنا سره ذلك وأفرحه، وما رأى من قبيح ساءه وغاظه، وود لو أنه تبرأ منه، وأن يكون بينهما أمد بعيد، كما يقول لشيطانه الذى كان مقترناً به فى الدنيا، وهو الذى جرّاه على فعل السوء: ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ [الزخرف:٣٨].

ثم قال تعالى ـ مؤكدا ومهددا ومتوعدا: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أى: يخوفكم عقابه، ثم قال ـ مرجيًا لعباده لئلا ييأسوا من رحمته ويقنطوا من لطفه: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾. قال الحسن البصرى: من رأفته بهم حذرهم نفسه. وقال غيره: أى رحيم بخلقه، يحب لهم أن يستقيموا على صراطه المستقيم ودينه القويم، وأن يتبعوا رسوله الكريم.

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب فى نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدى والدين النبوى فى جميع أقواله وأفعاله، كما ثبت فى

(١) فى المطبوعة: «عن ميمون بن مهران» ! وفى المخطوطة الأزهرية : « عن عمرو بن ميمون بن مهران » !! وهو تخليط. فإن « ميمون بن مهران » ليس من « بنى أود » . ثم هو لم يدرك معاذا. وابنه : « عمرو بن ميمون بن مهران » أبعد من ذلك . والصواب ما أثبتنا : « عن عمرو بن ميمون » وهو الأودى ، وهو تابعى كبير مخضرم ، أدرك الجاهلية ، ولم يلق النبى ﷺ ، وروى عن كبار الصحابة .

الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عليه أمْرُنَا فَهُوَ ردٌّ» (١) ولهذا قال: ﴿قُلْ إن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ أي: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول، كما قال بعض العلماء الحكماء: ليس الشأن أن تُحِبّ، إنما الشأن أن تُحَبّ .

ثم قال: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: باتباعكم للرسول ﷺ يحصل لكم هذا كله ببركة سفارته. ثم قال آمراً لكل أحد من خاص وعام: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإن تَوَلَّوْا﴾ أي: خالفوا عن أمره ﴿فَإِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ فدل على أن مخالفته في الطريقة كفر، والله لا يحب من اتصف بذلك، وإن ادعى وزعم في نفسه أنه يحب الله ويتقرب إليه ، حتى يتابع الرسول النبي الأمي خاتم الرسل ، ورسول الله إلى جميع الثقلين الجن والإنس، الذي لو كان الأنبياء ـ بل المرسلون، بل أولو العزم منهم ـ في زمانه ما وسعهم إلا اتباعه، والدخول في طاعته، واتباع شريعته، كما سيأتي تقريره عند قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ الآية [آل عمران: ٨١] إن شاء الله تعالى.

﴿ ۞ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ ﴾ ربع

يخبر تعالى أنه اختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض، فاصطفى آدم، عليه السلام، خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، وأسكنه الجنة ثم أهبطه منها، لما له في ذلك من الحكمة. واصطفى نوحا، عليه السلام، وجعله أول رسول إلى أهل الأرض، لما عبد الناس الأوثان، وأشركوا في دين الله ما لم ينزل به سلطانا، وانتقم له لما طالت مدته بين ظَهْرَانَي قومه، يدعوهم إلى الله ليلا ونهاراً، سرا وجهاراً، فلم يزدهم ذلك إلا فراراً، فدعا عليهم، فأغرقهم الله عن آخرهم، ولم يَنْجُ منهم إلا من اتبعه على دينه الذي بعثه الله به. واصطفى آل إبراهيم، ومنهم: سيد البشر وخاتم الأنبياء على الإطلاق محمد ﷺ ، وآل عمران، والمراد بعمران هذا: هو والد مريم بنت عمران، أم عيسى ابن مريم، عليه السلام. فعيسى، عليه السلام، من ذرية إبراهيم، كما سيأتي بيانه في سورة الأنعام، إن شاء الله وبه الثقة.

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۝ ﴾

امرأة عمران هذه [هي] أم مريم عليها السلام ، قال ابن إسحاق: كانت امرأة لا تحمل، فاشتهت الولد ، فدعت الله تعالى أن يهبها ولدا ، فاستجاب الله دعاءها ، فلما تحققت الحمل نذرت أن يكون ﴿مُحَرَّرًا﴾ أي : خالصا مفرغا للعبادة ، ولخدمة بيت المقدس ، فقالت : ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ، أي: السميع لدعائي، العليم بنيتي، ولم تكن تعلم ما في بطنها أذكرا أم أنثى؟ ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ . قرئت برفع التاء على أنها تاء

(١) رواه الشيخان من حديث عائشة . وهذا لفظ مسلم (٢ / ٤٢) . وهو الحديث الخامس من الأربعين النووية.

المتكلم، وأن ذلك من تمام قولها، وقُرئ بتسكين التاء على أنه من قول الله عز وجل ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾ أي: في القوة والجَلَد في العبادة وخدمة المسجد الأقصى ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ فيه دليل على جواز التسمية يوم الولادة كما هو الظاهر من السياق؛ لأنه شرع من قبلنا، وقد حكى مقرراً، وبذلك ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ حيث قال: «وُلِدَ لِي اللَّيْلَةَ وَلَدٌ سَمَّيْتُهُ بِاسْمِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ». أخرجاه(١).

وقوله إخباراً عن أم مريم أنها قالت: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾

أي: عَوَّذتها بالله، عز وجل، من شر الشيطان، وعوذت ذريتها، وهو ولدها عيسى، عليه السلام. فاستجاب الله لها ذلك كما روى الشيخان عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلا مَسَّهُ الشَّيْطَانُ حِينَ يُولَدُ، فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِنْ مَسِّهِ إِيَّاهُ، إِلا مَرْيَمَ وَابْنَهَا». ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾(٢).

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

يخبر ربنا أنه تقبلها من أمها نذيرة، وأنه ﴿أَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ أي: جعلها شكلا مليحا ومنظرا بهيجا، ويَسر لها أسباب القبول، وقرنها بالصالحين من عباده تتعلم منهم العلم والخير والدين. فلهذا قال: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [وفي قراءة: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾] بتشديد الفاء ونصب زكريا على المفعولية، أي جعله كافلا لها(٣). قال ابن إسحاق: وما ذاك إلا أنها كانت يتيمة. وإنما قدر الله كون زكريا كافلها لسعادتها، لتقتبس منه علما جما نافعاً وعملا صالحاً؛ ولأنه كان زَوْجَ خالتها، على ما ذكره ابن إسحاق وابن جرير. وقيل: زوج أختها، كما ورد في الصحيح: «فإذا بيحيى وعيسى، وَهُمَا ابْنَا الخَالَةِ»، وقد يُطْلق على ما ذكره ابن إسحاق ذلك أيضا تَوسُّعا، فعلى هذا كانت في حضانة خالتها.

ثم أخبر تعالى عن سيادتها وجلالتها في محل عبادتها، فقال: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير وغيرهم يعني وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف. وفيه دلالة على كرامات الأولياء. وفي السنة لهذا نظائر كثيرة. فإذا رأى زكريا هذا عندها ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ أي يقول: من أين لك هذا؟ ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا

---

(١) أي البخاري ومسلم. وهذه الكلمة جزء من حديث أنس، في صحيح مسلم (٢ / ٢١٣). والحديث رواه البخاري أيضا (٣ / ١٣٨ ـ ١٤٠)، ولكن ليس في روايته هذه الكلمة. ونص الحافظ في الفتح على أنها زيادة عند مسلم.

(٢) البخاري (٨ / ١٥٩ فتح) ومسلم (٢ / ٢٢٤) والمسند (٧١٨٢، ٧٦٩٤) والطبري (٦٨٨٤ ـ ٦٨٩٢) بنحوه.

(٣) التشديد قراءة الكوفيين من السبعة، وقرأ باقي السبعة بتخفيف الفاء، فيكون «زكريا» فاعلا مرفوعا. والزيادة هنا من المخطوطة. وهي تدل على أن الحافظ ابن كثير ذكرها بقراءة التخفيف، ثم حكى قراءة التشديد.

مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾

لما رأى زكريا، عليه السلام، أن الله تعالى يرزق مريم، عليها السلام، فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء ـ طمع حينئذ في الولد، وكان شيخا كبيرا قد ضعف ووَهَن منه العظم، واشتعل رأسه شيبا، وكانت امرأته مع ذلك كبيرة وعاقرا، لكنه مع هذا كله سأل ربه وناداه نداء خفيا، وقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ﴾ أي: من عندك ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ أي: ولدا صالحا ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾. قال الله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ أي: خاطبته الملائكة شفاها خطاباً أسمعته، وهو قائم يصلي في محراب عبادته، ومحل خَلْوَته، ومجلس مناجاته، وصلاته. ثم أخبر تعالى عما بشّرته به الملائكة: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾، أي: بولد يوجد لك من صلبك اسمه « يحيى » .

وقوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ عن ابن عباس والحسن وقتادة وعكرمة ومجاهد، وغيرهم : أي: بعيسى ابن مريم (١) .

وقوله: ﴿وَسَيِّدًا﴾: قال أبو العالية، وقتادة، وسعيد بن جبير، وغيرهم: الحكيم، وقال قتادة: سيداً في العلم والعبادة. وقال ابن عباس، والثوري، والضحاك: السيد الحكيم المتقي. وقال مجاهد وغيره : هو الكريم على الله عز وجل وقوله: ﴿وَحَصُورًا﴾ رُوي عن ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وغيرهم أنهم قالوا: هو الذي لا يأتي النساء (٢). وقد قال القاضي عياض في كتابه الشفاء: اعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى أنه كان ﴿حَصُورًا﴾ ليس كما قاله بعضهم: إنه كان هيوبا، أو لا ذَكَر له، بل قد أنكر هذا حُذَّاقُ المفسرين ونقاد العلماء، وقالوا: هذه نقيصة وعيب ولا تليق بالأنبياء، عليهم السلام، وإنما معناه: أنه معصوم من الذنوب، أي لا يأتيها كأنه حصور عنها، وقيل: مانعا نفسه من الشهوات. وقيل: ليست له شهوة في النساء. وقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص، وإنما الفضل في كونها موجودة ثم يمنعها : إما بمجاهدة كعيسى أو بكفاية من الله ، عز وجل، كيحيى ، عليه السلام . ثم هي في حق من قَدَر عليها وقام بالواجب فيها ولم تشغله عن ربه درجة عليا، وهي درجة نبينا ﷺ الذي لم يشغله كثرتهن عن عبادة ربه، بل زاده ذلك عبادة ، بتحصينهن وقيامه عليهن، واكتسابه لهن، وهدايته إياهن. بل قد صرّح أنها ليست من حظوظ دنياه هو، وإن كانت من حظوظ دنيا غيره، فقال: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ». هذا لفظه. والمقصود : أن مدح يحيى بأنه حصور ليس أنه لا يأتي النساء، بل معناه كما قاله هو وغيره: أنه حصور من الفواحش والقاذورات، ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال وغشيانهن وإيلادهن، بل قد يفهم وجود النسل له من دعاء

---

(١) يعني أن عيسى خلق بكلمة من الله ، قال له : « كن » فكان . كما سيأتي في تفسير ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ ، ص ٣٣١ . وقد أحال الحافظ ابن كثير هناك على هذا الموضع ، ولكنه لم يذكره هنا صراحة ، كما ترى.

(٢) ثم ذكر الحافظ ابن كثير هنا ـ نقلا عن ابن أبي حاتم ـ حديثا مرفوعا في هذا المعنى، وصفه بأنه «غريب جدا». ثم نقل مثله موقوفا على عبد الله بن عمرو بن العاص . ثم قال : « فهذا موقوف ، وهو أصح إسنادا من المرفوع ، بل وفي صحة المرفوع نظر » . هذا ما ثبت في المخطوطة . وفي المطبوعة زيادة رواية مرفوعة عن عبد الله بن عمرو ، من تفسير ابن المنذر ، وأخرى مرفوعة أيضا ، من رواية ابن أبي حاتم ، من حديث أبي عريرة .

زكريا المتقدم حيث قال: ﴿هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ كأنه قال: ولداً له ذرية ونسل وعقب، والله سبحانه وتعالى أعلم.

قوله: ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ هذه بشارة ثانية بنبوة يحيى بعد البشارة بولادته، وهى أعلى من الأولى كقوله لأم موسى: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧] فلما تحقق زكريا، عليه السلام، هذه البشارة أخذ يتعجب من وجود الولد منه بعد الكبر ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ﴾ أى الملك: ﴿كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ أى: هكذا أمرُ الله عظيم، لا يعجزه شىء ولا يتعاظمه أمر ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً﴾ أى: علامة أستدل بها على وجود الولد منى ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ أى: إشارة لا تستطيع النطق، مع أنك سوى صحيح، كما فى قوله: ﴿ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ [مريم: ١٠] ثم أمر بكثرة الذكر والشكر والتسبيح فى هذه الحال، فقال: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾. وسيأتى طرف آخر فى بسط هذا المقام فى أول سورة مريم، إن شاء الله تعالى.

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

هذا إخبار من الله تعالى بما خاطبت به الملائكة مريم، عليها السلام، عن أمر الله لهم بذلك: أن الله قد اصطفاها، أى: اختارها لكثرة عبادتها وزهادتها وشرفها وطهرها من الأكدار والوسواس، واصطفاها ثانياً مرة بعد مرة لجلالتها على نساء العالمين. روى عبد الرزاق: عن سعيد بن المسيب فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾. قال: كان أبو هريرة يُحدث عن رسول الله ﷺ: «خَيْرُ نِسَاءٍ رَكِبْنَ الإبلَ نِسَاءُ قُرَيْشٍ، أَحْنَاهُ عَلَى وَلَدٍ فِى صِغَرِهِ، وأَرْعَاهُ عَلَى زَوْجٍ فِى ذَاتِ يَدِهِ، ولَمْ تَرْكَبْ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ بَعِيراً قَطُّ» (١). وعن على بن أبى طالب : سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ». أخرجاه فى الصحيحين (٢). وروى الترمذى: عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، وآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ» تفرد به الترمذى وصححه (٣). وروى البخارى عن أبى موسى الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ: «كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، ولَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، ومَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وإنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ». ورواه الجماعة إلا أبا داود ، واللفظ للبخارى (٤) .

ثم أخبر تعالى عن الملائكة: أنهم أمروها بكثرة العبادة والخشوع والخضوع والسجود والركوع والدؤوب فى العمل ، لما يريد الله بها من الأمر الذى قدره الله وقضاه ، مما فيه محنة لها ورفعة فى

---

(١) ورواه أحمد (٧٦٣٧) عن عبد الرزاق ، بقصة فى أوله ، ولم يذكر الآية . وكذلك رواه مسلم (٢ / ٢٧٠) من طريق عبد الرزاق . وقوله : « ولم تركب مريم ... » ـ هو من كلام أبى هريرة ، لا من الحديث المرفوع، كما بين ذلك صريحا فى رواية أحمد ورواية أخرى لمسلم قبل هذه . وانظر تفسير الطبرى (٧٠٢٨، ٧٠٢٩) .

(٢) ورواه أحمد (٦٤٠ ، ٩٣٨) والطبرى (٧٠٢٦) . وفصلنا تخريجه فيهما.

(٣) ورواه أيضا أحمد (١٢٤١٨) والحاكم (٣ / ١٩٧ ـ ١٩٨).

(٤) البخارى (٦ / ٣٠ ، ٣٢١ فتح) ، ورواه الطبرى (٧٠٣١) بزيادة خديجة وفاطمة، ولم يذكر عائشة.

الدارين، بما أظهر الله تعالى فيها من قدرته العظيمة، حيث خلق منها ولداً من غير أب، فقال تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾. أما القنوت: فهو الطاعة فى خشوع ، كما قال تعالى: ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦] .

ثم قال تعالى لرسوله ـ بعدما أطلعه على جلية الأمر: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ أى: نقصه عليك ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أى: ما كنت عندهم يا محمد فَتُخْبِر عنهم معاينة عما جرى، بل أطلعك الله على ذلك كأنك كنت حاضرا وشاهداً لما كان من أمرهم حين اقترعوا فى شأن مريم أيهم يكفلها، وذلك لرغبتهم فى الأجر.

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾

هذه بشارة من الملائكة لمريم ، عليها السلام ، بأن سيوجد منها ولد عظيم ، له شأن كبير . قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ أى : بولد يكون وجوده بكلمة من الله ، أى: بقوله له : «كن» فيكون ، وهذا تفسير قو ل: ﴿ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٣٩] كما ذكره الجمهور على ما سبق بيانه [١] ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ أى يكون مشهوراً بهذا فى الدنيا ، يعرفه المؤمنون بذلك. وسمى المسيح، قال بعض السلف: لكثرة سياحته. وقيل: لأنه كان مسيح القدمين: لا أخمص لهما [٢]. وقيل: لأنه كان إذا مسح أحداً من ذى العاهات برئ بإذن الله تعالى.

وقوله: ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ نسبة له إلى أمه، حيث لا أب له ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أى: له وجاهة ومكانة عند الله فى الدنيا، بما يوحيه الله إليه من الشريعة، وينزله عليه من الكتاب، وغير ذلك مما منحه به. وفى الدار الآخرة يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه، فيقبل منه، أسوة بإخوانه من أولى العزم، صلوات الله عليهم.

وقوله: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً﴾ أى:يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فى حال صغره، معجزة وآية، وحال كهوليته حين يوحى الله إليه [بذلك] ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أى: فى قوله وعمله، له علم صحيح وعمل صالح. فلما سمعت بشارة الملائكة لها بذلك، عن الله، عز وجل، قالت فى مناجاتها :﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾، تقول: كيف يوجد هذا الولد منى وأنا لست بذات زوج ولا من عزمى أن أتزوج ، ولست بَغيا؟! حاشا لله. فقال لها الملك ـ عن الله، عز وجل، فى جواب هذا السؤال: ﴿ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ أى: هكذا أمْرُ الله عظيم، لا يعجزه شىء. وصرح هاهنا بقوله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ ولم يقل : « يفعل » كما فى قصة زكريا ، بل نص هاهنا على أنه يخلق ؛ لئلا يبقى لمبطل شبهة، وأكد ذلك بقوله: ﴿ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ أى: فلا يتأخر شيئاً، بل

(١) لم يصرح ابن كثير بذلك هناك ، ص ٣٢٩ ، كما بينا من قبل .

(٢) « الأخمص » ـ بفتح الهمزة والميم بينهما خاء معجمة : باطن القدم وما رق من أسفلها وتجافى عن الأرض.

يوجد عقيب الأمر بلا مهلة، كقوله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، أى: إنما نأمر مرة [واحدة] لا مثنوية فيها، فيكون ذلك الشىء سريعاً كلمح بالبصر.

﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝ ﴾

يقول تعالى ـ مخبرا عن تمام بشارة الملائكة لمريم بابنها عيسى ، عليه السلام ـ أن الله يعلمه ﴿الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ . الظاهر أن المراد بالكتاب هاهنا : الكتابة . والحكمة تقدم تفسيرها فى سورة البقرة (٢). ﴿وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾، فالتوراة: هو الكتاب الذى أنزله الله على موسى بن عمران. والإنجيل: الذى أنزل الله على عيسى عليهما السلام، وقد كان عيسى عليه السلام، يحفظ هذا وهذا.

وقوله: ﴿وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [أى: يجعله رسولا إلى بنى إسرائيل] (٣)، قائلا لهم: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وكذلك كان يفعل: يصور من الطين شكل طير، ثم ينفخُ فيه، فيطير عياناً بإذن الله، عز وجل، الذى جعل هذا معجزة له تدل على أنه أرسله.

﴿وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ﴾ قيل: هو الذى يبصر نهاراً ولا يبصر ليلا. وقيل بالعكس . وقيل: هو الذى يولد أعمى. وهو أشبه؛ لأنه أبلغ فى المعجزة وأقوى فى التحدى ﴿وَالأَبْرَصَ﴾ معروف. ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قال كثير من العلماء: بعث الله كل نبى من الأنبياء بمعجزة تناسب أهل زمانه، فكان الغالب على زمان موسى، عليه السلام، السحر وتعظيم السحرة. فبعثه الله بمعجزات بَهَرَت الأبصار وحيرت كل سَحّار، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام، وصاروا من الأبرار. وأما عيسى، عليه السلام، فبُعث فى زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه، إلا أن يكون مؤيداً من الذى شرع الشريعة . فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد ؟ أو على مداواة الأكمه، والأبرص؟ وبعث من هو فى قبره رهين إلى يوم التناد ؟ وكذلك محمد ﷺ بعثه فى زمن الفصحاء والبلغاء ونحارير الشعراء (٤) ، فأتاهم بكتاب من الله ، عز وجل ، لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور من مثله ، أو بسورة من مثله ـ لم يستطيعوا أبداً ، ولو كان بعضهم

(١) قرأ نافع وعاصم : « ويعلمه » بالياء ، وهى قراءة حفص أحد رواة عاصم . وقرأ باقى السبعة : « ونعلمه » بالنون، وهى الثابتة فى المخطوطة الأزهرية .

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٢٩) والآية (١٥١) . ويتعين أن تكون الحكمة هنا بمعنى الفهم فى الدين.

(٣) الزيادة من المخطوطة الأزهرية . وحذفها خطأ .

(٤) « النحارير » بالنون والحاء المهملة وراءين : جمع « نحرير » بكسر النون . وهو الحاذق الماهر العاقل المتقن البصير فى كل شىء . وفى المطبوعة بدلها : « تحاريد » ! وهو غاية فى السخف . والصواب من المخطوطة.

لبعض ظهيرا، وما ذاك إلا لأن كلام الرب لا يشبهه كلام الخلق أبداً.

وقوله: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ أي: أخبركم بما أكل أحدكم الآن، وماهو مدخر له في بيته لغده ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: في ذلك كله ﴿لَآيَةً لَّكُمْ﴾ أي: على صدقي فيما جئتكم به ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ أي: مقرراً لها ومثبتًا ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾، فيه دلالة على أن عيسى، عليه السلام، نسخ بعض شريعة التوراة، وهو الصحيح من القولين، ومن العلماء من قال: لم ينسخ منها شيئاً، وإنما أحلّ لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه فأخطؤوا، فكشف لهم عن المغطى في ذلك، كما قال في الآية الأخرى : ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [الزخرف:٦٣] والله أعلم.

ثم قال: ﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: بحجة ودلالة على صدقي فيما أقول لكم ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ أي: أنا وأنتم سواء في العبودية له والخضوع والاستكانة إليه ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ ربع

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى﴾ أي: استشعر منهم التصميم على الكفر والاستمرار على الضلال قال: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ ، قال مجاهد: أي من يتبعني إلى الله؟ والظاهر أنه أراد: من أنصاري في الدعوة إلى الله. كما كان النبي ﷺ يقول في مواسم الحج، قبل أن يهاجر: «مَنْ رَجُلٍ يُؤْوِيني حتى أبلغ كلامَ ربّي، فإنَّ قُرَيْشاً قَدْ مَنَعُوني أنْ أُبَلِّغَ كَلامَ رَبّي» حتى وجد الأنصار فآووه ونصروه، وهاجر إليهم فواسَوْه، ومنعوه من الأسود والأحمر. وهكذا عيسى ابن مريم، انتدَبَ له طائفة من بني إسرائيل فآمنوا به وآزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه. ولهذا قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ. رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾: الحواريون، قيل: كانوا قصّارين وقيل: سموا بذلك لبياض ثيابهم، وقيل: صيادين. والصحيح أن الحواري الناصر، كما ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ لما نَدبَ الناس يوم الأحزاب، فانتدَبَ الزبير، ثم ندبهم فانتدب الزبير، فقال: «إنَّ لِكُلِّ نَبيٍّ حَوَارِيٌّ وَحَوَارِيي الزُّبَيْرُ» (١). وروى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس في قوله: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾، قال: مع أمة محمد ﷺ. وإسناده جيد.

ثم قال تعالى مخبرا عن بني إسرائيل فيما هَمُّوا به من الفتك بعيسى ، عليه السلام ، وإرادته بالسوء والصَّلب، حين تمالؤوا عليه وَوَشَوا به إلى ملك ذلك الزمان، وكان كافراً، [فأنهَوا إليه] أن هاهنا رجلا يضل الناس ويصدهم عن طاعة الملك، ويُفَنِّد الرعايا (٢)، ويفرق بين الأب وابنه، إلى غير

(١) انظر المسند (٦٨١ ، ٧٩٩) من حديث عليّ ، و (١٤٤٢٧، ١٤٦٨٧) من حديث جابر وكذلك البخاري من حديثه (١٣/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤ فتح) .

(٢) يفند الرعايا : بتشديد النون المكسورة : يفرقهم ويجعلهم أفنادا ، أي : فرقا مختلفين . وفي المطبوعة : « يفسد » بالسين بدل النون.

ذلك مما تقلدوه فى رقابهم ورموه به من الكذب، وأنه ولد زنية ! حتى استثاروا غضب الملك، فبعث فى طلبه من يأخذه ويصلبه ويُنَكِّل به، فلما أحاطوا بمنزله وظنوا أنهم قد ظَفِروا به، نجاه الله من بينهم، ورفعه من رَوْزَنَة ذلك البيت إلى السماء، وألقى الله شبهه على رجل كان عنده فى المنزل، فلما دخل أولئك اعتقدوه فى ظلمة الليل عيسى ، فأخذوه وأهانوه [وصلبوه] ، ووضعوا على رأسه الشوك. وكان هذا من مكر الله بهم، فإنه نجى نبيه ورفعه من بين أظهرهم، وتركهم فى ضلالهم يعمهون، يعتقدون أنهم قد ظفروا بطَلِبَتهم، وأسكن الله فى قلوبهم قسوة وعنادا للحق ملازما لهم، وأورثهم ذلة لا تفارقهم إلى يوم التناد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾.

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ ﴾

اختلف المفسرون فى قوله تعالى: ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ فقال قتادة وغيره: هذا من المقدَّم والمؤخر، وتقديره: إنى رافعك إلى ومتوفيك، يعنى بعد ذلك. وقال ابن عباس: ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ﴾ أى: مميتك. قال ابن إسحاق: والنصارى يزعمون أن الله توفاه سبع ساعات ثم أحياه! وقال مطر الوراق: إنى متوفيك من الدنيا وليس بوفاة موت، وكذا قال ابن جريج: تَوَفِّيه هو رفعه.

وقال الأكثرون: المراد بالوفاة هاهنا: النوم، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠] ، وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٢]، وكان رسول الله ﷺ يقول ـ إذا قام من النوم ـ: «الْحَمْدُ لله الَّذِى أحيَانَا بَعْدَ مَا أمَاتَنَا وإلَيْه النُّشُور»[١]، وقال الله تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا . وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا . بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٦ ـ ١٥٩] والضمير فى قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ عائد على عيسى، عليه السلام، أى: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنَنَّ بعيسى [قبل موت عيسى]، وذلك حين ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة، على ما سيأتى بيانه[٢]، فحينئذ يؤمن به أهل الكتاب كلهم؛ لأنه يضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام[٣] .

(١) من حديث رواه البخارى (١١ / ٩٦ ، ٩٧ فتح) ، من حديث حذيفة .

(٢) عند تفسير الآية (١٥٩) من سورة النساء .

(٣) وهو القول الصحيح المتعين. وصححه الطبرى، وقال: «معنى ذلك: إنى قابضك من الأرض ورافعك إلى. لتواتر الأخبار من رسول الله ﷺ أن قال : ينزل عيسى ابن مريم فيقتل الدجال ، ثم يمكث فى الأرض مدة ـ ذكرها ـ اختلفت الرواية فى مبلغها ـ ثم يموت فيصلى عليه المسلمون ويدفنونه» . ثم قال : « ومعلوم أنه لو كان قد أماته الله عز وجل، لم يكن بالذى يميته ميتة أخرى، فيجمع عليه ميتتين » . انظر الطبرى (٦/ ٤٥٨، ٤٦٠) (طبعتنا بدار المعارف).

وقوله تعالى: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: برفعى إياك إلى السماء ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، وهكذا وقع؛ فإن المسيح، عليه السلام، لما رفعه الله إلى السماء تَفرَّقت أصحابه شيَعاً بعده؛ فمنهم من آمن بما بعثه الله به على أنه عبد الله ورسوله وابن أمته، ومنهم من غلا فيه فجعله ابن الله، وآخرون قالوا: هو الله. وآخرون قالوا: هو ثالث ثلاثة. وقد حكى الله مقالاتهم فى القرآن، وردّ على كل فريق، فاستمروا كذلك قريبا من ثلاثمائة سنة، ثم نَبَغ لهم ملك من ملوك اليونان، يقال له: قسطنطين، فدخل فى دين النصرانية، قيل: حيلة ليفسده، فإنه كان فيلسوفا، وقيل: جهلا منه، إلا أنه بَدل لهم دين المسيح وحرفه، وزاد فيه ونقص منه، ووضعت له القوانين والأمانة الكبيرة ـ التى هى الخيانة الحقيرة ـ وأحل فى زمانه لحم الخنزير، وصلّوا [له] إلى المشرق،وصوروا له الكنائس، وزادوا فى صيامهم عشرة أيام من أجل ذنب ارتكبه، فيما يزعمون. وصار دين المسيح دين قسطنطين ، إلا أنه بنى لهم من الكنائس والمعابد والصوامع والديارت مايزيد على اثنى عشر ألف معبد، وبنى المدينة المنسوبة إليه، واتبعه الطائفة المَلْكِيَّة منهم.وهم فى هذا كله قاهرون لليهود، أيديهم عليهم ؛ لأنهم أقرب إلى الحق منهم، وإن كان الجميع كفارا، عليهم لعائن الله.

فلما بعث الله محمداً ﷺ، فكان من آمن به يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله على الوجه الحق ـ كانوا هم أتباع كُل نبى على وجه الأرض ـ إذ قد صدقوا الرسول النبى الأمى، خاتم الرسل، وسيد ولد آدم، الذى دعاهم إلى التصديق بجميع الحق، فكانوا أولى بكل نبى من أمته، الذين يزعمون أنهم على ملّته وطريقته، مع ماقد حرّفوا وبدلوا.

ثم لو لم يكن شىء من ذلك لكان قد نسخ الله شَرِيعَةَ جميع الرسل بما بعث به محمداً ﷺ من الدين الحق ، الذى لا يغير ولا يبدل إلى قيام الساعة ، ولا يزال قائما منصوراً ظاهرا على كل دين . فلهذا فتح الله لأصحابه مشارق الأرض ومغاربها، واحتازوا جميع الممالك، ودانت لهم جميعُ الدول، وكسروا كسرى، وقَصروا قيصر (١) ، وسلبوهما كُنُوزَهما ، وأنفقت فى سبيل الله ، كما أخبرهم بذلك نبيهم عن ربهم ، عز وجل ، فى قوله : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ الآية [النور:٥٥] ولهذا لما كانوا هم المؤمنين بالمسيح حقا سلبوا النصارى بلاد الشام وأجْلَوهم إلى الروم، فلجؤوا إلى مدينتهم القسطنطينية ، ولايزال الإسلام وأهله فوقهم إلى يوم القيامة . وقد أخبر الصادق المصدوق أمّته بأن آخرهم سيفتحون القسطنطينية ، ويستفيؤون ما فيها من الأموال ، ويقتلون الروم مَقْتلة عظيمة جدا ، لم ير الناس مثلها ولا يرون بعدها نظيرها (٢) ، وقد جمعت فى هذا جزءا مفردا. ولهذا قال تعالى : ﴿ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ. فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ ، وكذلك فعل تعالى

(١) يريد : قسروه ، أى غلبوه وقهروه ، من « القسر » ، فأبدل السين صادا ، وهما يتبادلان فى كثير من الكلام . انظر : اللسان (٦ / ٤٠٩) .

(٢) فتح القسطنطينية المبشر به فى الحديث ـ سيكون فى مستقبل قريب أو بعيد ،يعلمه الله عز وجل . وهو الفتح الصحيح لها ، حين يعود المسلمون إلى دينهم الذى أعرضوا عنه ، وأما فتح الترك الذى كان قبل عصرنا هذا ، فإنه كان تمهيدا للفتح الأعظم . ثم هى قد خرجت بعد ذلك من أيدى المسلمين ، منذ أعلنت حكومتهم هناك أنها حكومة غير إسلامية وغير دينية ، وعاهدت الكفار أعداء الإسلام ، وحكمت أمتها بأحكام القوانين الوثنية الكافرة . وسيعود الفتح الإسلامى لها ، إن شاء الله كما بشر رسول الله .

بمن كفر بالمسيح من اليهود ، أو غلا فيه أو أطراه من النصارى ؛ عَذبهم فى الدنيا بالقتل والسبى وأخْذ الأموال وإزالة الأيدى عن الممالك، وفى الدار الآخرة عَذابُهم أشد وأشق ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤]. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾، أى: فى الدنيا والآخرة، فى الدنيا بالنصر والظفر، وفى الآخرة بالجنات العاليات ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ أى: هذا الذى قَصَصْنَا عليك يامحمد فى أمر عيسى ومبدأ ميلاده وكيفية أمره، هو مما قاله الله تعالى، وأوحاه إليك وأنزله عليك من اللوح المحفوظ، فلا مرية فيه ولاشك، كما قال تعالى فى سورة مريم: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ . مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٤، ٣٥] وهاهنا قال تعالى:

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ﴾ فى قدرة الله تعالى حيث خلقه من غير أب ﴿كَمَثَلِ آدَمَ﴾ فإن الله تعالى خلقه من غير أب ولا أم، بل ﴿ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ والذى خلق آدم قادر على خلق عيسى بالطريق الأولى والأحرى، وإن جاز ادعاء البنوة فى عيسى بكونه مخلوقا من غير أب، فجواز ذلك فى آدم بالطريق الأولى، ومعلوم بالاتفاق أن ذلك باطل، فدعواه فى عيسى أشد بطلانا وأظهر فساداً. ولكن الرب، عزّ وجل، أراد أن يظهر قدرته لخلقه، حين خَلَق آدم لا من ذكر ولا من أنْثى؛ وخَلَق حواء من ذكر بلا أنثى، وخَلَق عيسى من أنثى بلا ذكر كما خلق بقية البرية من ذكر وأنثى، ولهذا قال تعالى فى سورة مريم : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [مريم: ٢١] ، وقال هاهنا : ﴿ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أى: هذا القول هو الحق فى عيسى، الذى لا محيد عنه ولا صحيح سواه ، وماذا بعد الحق إلا الضلال.

ثم قال تعالى ـ آمرا رسوله ﷺ أن يُباهِلَ مَنْ عَانَدَ الحق فى أمر عيسى بعد ظهور البيان: ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾أى: نحضرهم فى حال المباهلة ﴿ ثُمَّ نَبْتَهِلْ ﴾ أى: نلتعن ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾، أى: منا أو منكم.

وكان سبب نزول هذه المباهلة وما قبلها ـ من أول السورة إلى هنا ـ فى وفد نجران: أن النصارى حين قدموا فجعلوا يُحَاجّون فى عيسى، ويزعمون فيه ما يزعمون من البنوة والإلهية، فأنزل الله صَدْرَ هذه السورة ردّا عليهم. وروى البخارى: عن حذيفة قال: جاء العاقبُ والسيدُ صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تَفْعَلْ، فوالله إن كان نبيا فلاعناه لا نفلحُ نحنُ ولاعَقِبنا من بعدنا . قالا : إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلا أميناً، ولاتبعث معنا إلا

أمينا. فقال: «لأبْعَثَنَّ مَعَكُمْ رَجُلاً أمينًا، حَقَّ أمين»، فاستشرفَ لها أصحابُ رسول الله ﷺ، فقال: «قُمْ يَاأَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ» فلما قام قال رسول الله ﷺ: «هَذَا أمينُ هذه الأُمَّة». ورواه مسلم، والترمذى، والنسائى، وابن ماجه بنحوه[١]. وقد رواه أحمد، والنسائى، وابن ماجه، عن ابن مسعود، بنحوه[٢].

وروى الإمام أحمد: عن ابن عباس، قال: قال أبو جهل: إن رأيتُ محمدا يصلى عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه. قال: فقال: «لو فعلَ لأخَذَتْه الملائكةُ عياناً، ولو أن اليهود تمنَّوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجَعُوا لا يجدون مالا ولا أهلا». وقد رواه الترمذى، وقال الترمذى: حسن صحيح[٣].

والغرض: أن وفودهم كان فى سنة تسع؛ لأن الزهرى قال: كان أهل نجران أول من أدى الجزية إلى رسول الله ﷺ، وآية الجزية إنما أنزلت بعد الفتح، وهى قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩][٤].

وروى ابن مردويه عن الشعبى، عن جابر قال: قدم على النبى ﷺ العاقب والطيب، فدعاهما إلى الملاعنة فواعداه على أن يلاعناه الغداة. قال: فغدا رسول الله ﷺ، فأخذ بيد على وفاطمة والحسن والحسين، ثم أرسل إليهما فأبَيَا أن يجيبا، وأقرَّا له بالخراج، قال: فقال رسول الله ﷺ: «وَالَّذى بَعَثَنى بِالْحَقِّ لَوْ قَالَ: لاَ، لأمْطَرَ عَلَيْهِمُ الْوَادى ناراً» قال جابر: وفيهم نزلت ﴿تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾. قال جابر: ﴿أَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾: رسولُ الله ﷺ وعلىّ بن أبى طالب ﴿وَأَبْنَاءَنَا﴾: الحسن والحسين ﴿وَنِسَاءَنَا﴾: فاطمة. وهكذا رواه الحاكم بمعناه، ثم قال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه. هكذا قال: وقد رواه أبو داود الطيالسى، عن الشعبى مرسلا، وهذا أصح، وقد روى عن ابن عباس والبراء نحو ذلك.

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ أى: هذا الذى قصصناه عليك يا محمد فى شأن عيسى هو الحق الذى لا مَعْدل عنه ولا محيد ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أى: عن هذا إلى غيره ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أى: من عدل عن الحق إلى الباطل فهو المفسد والله عليم به، وسيجزيه على ذلك شر الجزاء، وهو القادر، الذى لا يفوته شىء سبحانه وبحمده ونعوذ به من حلول نقمته.

﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)﴾

---

(١) البخارى (٨/ ٧٣، ٧٤ فتح) ومسلم (٢/ ٢٤١) مختصرا، وكذلك رواه أحمد مختصرا (٥ / ٣٨٥، ٣٩٨ حلبى).
(٢) المسند (٣٩٣٠) مطولا.
(٣) المسند (٢٢٢٥، ٢٢٢٦). وفى المطبوعة هنا زيادة نسبته للبخارى، وليست فى المخطوطة. والبخارى لم يروه كاملا، إنما روى منه ما يتعلق بأبى جهل (٨ / ٥٥٧)، وهى رواية مختصرة، رواها أحمد أيضا (٣٤٨٣).
(٤) ذكر الحافظ ابن كثير ـ فى تفسير هذه الآيات ـ قصة وفد نجران مفصلة، من سيرة ابن إسحاق، ومن رواية ابن مردويه، ومن دلائل النبوة للبيهقى. فمن شاء التفصيل فليرجع إليه (١/ ٣٦٨ ـ ٣٧٠ الطبعة التجارية) وإلى تاريخه الكبير: البداية والنهاية (٥ / ٥٢ ـ ٥٦) وطبقات ابن سعد (١/ ٢ / ٨٤، ٨٥).

هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ومن جرى مجراهم ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾ والكلمة تطلق على الجملة المفيدة كما قال هاهنا. ثم وصفها بقوله: ﴿سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أى: عدل ونَصف، نستوى نحن وأنتم فيها. ثم فسرها بقوله: ﴿أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ لا وَثَن، ولا صنم، ولا صليب ولا طاغوت، ولا نار، ولا شيء. بل نُفْرِد العبادة لله وحده لا شريك له. وهذه دعوة جميع الرسل، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

ثم قال تعالى: ﴿وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ قال ابن جُرَيْج: يعني: يطيع بعضُنا بعضا فى معصية الله.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أى: فإن تولوا عن هذا النَّصَف وهذه الدعوة فأشْهدوهم أنتم على استمراركم على الإسلام الذى شرعه الله لكم. وقد روى البخارى، عن أبى سفيان، فى قصته حين دخل على قيصر، وكان ذلك بعد صُلْح الحُدَيْبِيَة وقبل الفتح، أنه قال: ثم جيء بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه، فإذا فيه: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلاَمٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى. أَمَّا بَعْدُ، فَأَسْلِمْ تَسْلَمْ، وأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ فَإِن تَوَلَّيْتَ فَإِنما عَلَيْكَ إِثْمَ الْيَرِيسِيين، و﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

وقد ذكر محمد بن إسحاق وغير واحد: أن صَدْر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها نزلت فى وَفْد نَجْران، وقال الزهرى: هم أول من بَذَلَ الجزية. ولا خلاف أن آية الجزية نزلت بعد الفتح، فما الجمع بين كتابة هذه الآية قبل الفتح إلى هِرَقل فى جملة الكتاب، وبين ما ذكره محمد بن إسحاق والزهرى؟ والجواب من وجُوه:

أحدها: يحتمل أن هذه الآية نزلت مرتين، مَرَّةً قبل الحديبية، ومرة بعد الفتح.

الثانى: يحتمل أن صدر سورة آل عمران نزل فى وفد نجران إلى عند هذه الآية، وتكون هذه الآية نزلت قبل ذلك، ويكون قول ابن إسحاق: «إلى بضع وثمانين آية» ليس بمحفوظ، لدلالة حديث أبى سفيان.

الثالث: يحتمل أن قدوم وفد نجران كان قبل الحديبية، وأن الذى بذلوه مُصَالحةً عن المباهلة لا على وجه الجزية، بل يكون من باب المهادنة والمصالحة، ووافق نزول آية الجزية بعد ذلك على وفق ذلك، كما جاء فرض الخمس والأربعة الأخماس وفق ما فعله عبد الله بن جحش فى تلك السرية قبل بدر، ثم نزلت فريضة القَسْم على وفق ذلك.

الرابع: يحتمل أن رسول الله ﷺ لما أمر بكَتْب هذا الكلام فى كتابه إلى هرقل وإن لم يكن أنزل بعد، ثم نزل القرآن موافقة له ﷺ كما نزل بموافقة عمر بن الخطاب فى الحجاب وفى الأسارى، وفى عدم الصلاة على المنافقين، وفى قوله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، وفى قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ الآية [التحريم: ٥].

﴿ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ (٦٥) هَـٰٓأَنتُمۡ هَـٰٓؤُلَآءِ حَـٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (٦٨) ﴾

ينكر تعالى على اليهود والنصارى فى محاجتهم فى إبراهيم الخليل، ودعوى كل طائفة منهم أنه كان منهم، كما روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس قال: اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ ، فتنازعوا عنده، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهوديا. وقالت النصارى : ما كان إبراهيم إلا نصرانيا. فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾. أى: كيف تدّعون، أيها اليهود، أنه كان يهوديا، وقد كان زمنه قبل أن ينزل الله التوراة على موسى؟ ، وكيف تدّعون، أيها النصارى، أنه كان نصرانيا، وإنما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر؟! ولهذا قال: ﴿ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾.

ثم قال: ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ هذا إنكار على من يحاج فيما لا علم له به، فإنَّ اليهود والنصارى تحاجّوا فى إبراهيم بلا علم، ولو تحاجوا فيما بأيديهم منه علْم مما يتعلق بأديانهم التى شرعت لهم إلى حين بعثة محمد ﷺ لكان أولى بهم، وإنما تكلموا فيما لم يعلموا ، فأنكر الله عليهم ذلك، وأمرهم بردّ ما لا علم لهم به إلى عالم الغيب والشهادة ، الذى يعلم الأمور على حقائقها وجلياتها، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ أى: مُتحنفًا عن الشرك قاصدًا إلى الإيمان ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. وهذه الآية كالتى تقدمت فى سورة البقرة: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥].

ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول تعالى: أحق الناس بمتابعة إبراهيم الخليل الذين اتبعوه على دينه، وهذا النبى ـ يعني محمدًا ﷺ ـ والذين آمنوا من أصحابه المهاجرين والأنصار ومَنْ بعدهم. روى سعيد بن منصور: عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ وُلاةً مِنَ النَّبِيِّينَ، وإنَّ وَلِيِّي مِنْهُمْ أبى وخَلِيلُ رَبِّى عز وجل». ثم قرأ: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ الآية . ورواه الترمذى والبزار . ورواه وكيع فى تفسيره عن ابن مسعود بنحوه(١) . وقوله: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: ولى جميع المؤمنين برسله.

﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَـٰبِ لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ (٦٩) يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ (٧٠) يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَـٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (٧١) وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَـٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ (٧٢) وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ

(١) ورواه أحمد (٣٨٠٠) عن وكيع . ورواه أيضا الطبرى (٧٢١٦، ٧٢١٧) والحاكم (٢/ ٢٩٢) وصححه على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي.

أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ (٧٤)﴾

يخبر تعالى عن حَسَد اليهود للمؤمنين وبَغْيهم إياهم الإضلال، وأخبر أنْ وَبَالَ ذلك إنما يعود على أنفسهم، وهم لا يشعرون أنهم ممكور بهم.

ثم قال تعالى منكرا عليهم: ﴿يا أهْلَ الْكتاب لم تكْفُرُون بآيَات الله وأَنتُمْ تشْهَدُون﴾ أي: تعلمون صدقها وتتحققون حقها ﴿يَا أهْلَ الْكتاب لم تلْبِسُون الْحقَّ بالْباطل وتَكْتُمُون الْحقَّ وأَنتُمْ تعْلمُون﴾ أي: تكتمون ما في كتبكم من صفة محمد ﷺ وأنتم تعرفون ذلك وتتحققونه. ﴿وقَالَت طَّائفةٌ مِّنْ أهْلِ الْكتاب آمنُوا بالَّذي أُنزل علَى الَّذين آمنُوا وجْهَ النَّهارِ واكْفُرُوا آخرَهُ لعلَّهُمْ يرْجعُون﴾ هذه مكيدة أرادوها ليَلْبِسُوا على الضعفاء من الناس أمْر دينهم، وهو أنهم اشْتَوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار ويُصَلّوا مع المسلمين صلاة الصبح، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ليقول الجهلة من الناس: إنما رَدّهم إلى دينهم اطّلاعهُم على نقيصة وعيب في دين المسلمين، ولهذا قالوا: ﴿لعلَّهُمْ يرْجعُون﴾. وقال ابن عباس: قالت طائفة من أهل الكتاب: إذا لقيتم أصحاب محمد أول النهار فآمنوا، وإذا كان آخره فَصَلّوا صلاتكم، لعلهم يقولون: هؤلاء أهل الكتاب وهم أعلم منا. وهكذا روى عن قتادة.

وقوله: ﴿ولا تُؤْمنُوا إلاَّ لمن تبعَ دينكُمْ﴾ أي: لا تطمئنوا وتظهروا سركم وما عندكم إلا لمن اتبع دينكم ولا تظهروا ما بأيديكم إلى المسلمين، فيؤمنوا به ويحتجوا به عليكم؛ قال الله تعالى: ﴿قُلْ إنَّ الْهُدَىٰ هُدَى الله﴾ أي: هو الذي يهدي قلوب المؤمنين إلى أتم الإيمان، بما ينزله على عبده ورسوله محمد ﷺ من الآيات البينات، والدلائل القاطعات، والحجج الواضحات، وإنْ كتمتم ـ أيها اليهود ـ ما بأيديكم من صفة محمد النبي الأمي في كتبكم التي نقلتموها عن الأنبياء الأقدمين.

وقوله: ﴿ أن يُؤْتَىٰ أحدٌ مِّثْلَ مَا أُوتيتُمْ أوْ يُحَاجُّوكُمْ عندَ ربِّكُمْ﴾ يقولون: لا تظهروا ما عندكم من العلم للمسلمين، فيتعلموه منكم، ويساوونكم فيه، ويمتازون به عليكم لشدة الإيمان به، أو يحاجوكم به عند الله، أي: يتخذوه حجة عليكم بما في أيديكم، فتقوم به وتَتَركَّب الحجةُ في الدنيا والآخرة. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إنَّ الْفضْلَ بيَد الله يُؤْتيه مَن يَشَاءُ﴾ أي: الأمورُ كلها تحت تصريفه، وهو المعطي المانع، يَمُنّ على من يشاء بالإيمان والعلم والتصور التام، ويضل من يشاء ويُعمي بصره وبصيرته، ويختم على قلبه وسمعه، ويجعل على بصره غشاوة، وله الحجة والحكمة. ﴿ والله واسعٌ عليمٌ. يَخْتصُّ برحْمته من يشاءُ والله ذُو الْفضْلِ الْعظيم﴾أي: اختصكم ـ أيها المؤمنون ـ من الفضل بما لا يُحَد ولا يُوصَف، بما شرَّف به نبيكم محمدًا ﷺ على سائر الأنبياء وهداكم به لأحمد الشرائع.

ربع ﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ (٧٦)﴾

يخبر تعالى عن اليهود بأن فيهم الخونة، ويحذر المؤمنين من الاغترار بهم، فإن منهم﴿ مَنْ إن تأْمنْهُ بقنطَارٍ﴾ أي: من المال ﴿ يُؤدّه إليْك﴾ أي : وما دونه بطريق الأولى أن يؤديه إليك ﴿ ومنْهُم مَّنْ إن تأْمنْهُ بدينَارٍ

﴿لاَ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ أى: بالمطالبة والملازمة والإلحاح فى استخلاص حقك، وإذا كان هذا صنيعه فى الدينار فما فوقه أولى ألا يؤديه إليك.

ومناسب أن يكون ها هنا الحديث الذى علقه البخارى فى غير موضع من صحيحه، ومن أحسنها سياقه فى كتاب الكفالة عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ : أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلا مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ سَأَلَ بَعْضَ بَنِى إِسْرَائِيلَ أَنْ يُسلفَه أَلْفَ دينار، فَقَالَ: ائتنى بالشُّهَدَاء أُشْهِدْهُم. فَقَالَ: كَفَى بِالله شَهِيدًا. قَالَ: ائتنى بِالْكَفِيلِ. قَالَ: كَفَى بِالله كَفِيلاً. قَالَ: صَدَقْتَ. فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ إلى أجلٍ مُسَمّى، فَخَرَجَ فِى الْبَحْرِ فَقَضَى حَاجَتَهُ، ثُمَّ الْتَمَسَ مَرْكَبًا يَرْكَبُها يَقْدم عَلَيْهِ للأَجَلِ الَّذى أَجَّلَه، فلم يَجِدْ مَرْكباً، فَأَخَذَ خَشَبَةً فَنقرهَا فَأَدْخَلَ فيهَا أَلْفَ دِينار، وصَحِيفَةً منْهُ إِلَى صَاحبه، ثُمَّ زَجَّجَ مَوْضِعَهَا، ثُمَّ أَتَى بها إِلَى الْبَحْرِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّى اسْتَسْلَفت فلانًا أَلْفَ دينَار فَسَأَلنى كفيلا، فَقُلْتُ:كَفَى بالله كَفيلا [فَرَضىَ بك]. وسَأَلَنى شَهيدًا، فَقُلْتُ: كَفَى بالله شَهيدًا. فَرَضِىَ بِكَ ، وإِنِّى جَهَدْتُ أَنْ أَجدَ مَرْكَبًا أَبْعَثُ إِلَيْه الذى لَهُ فَلَمْ أَقْدِرْ، وإِنِّى اسْتَوْدَعْتُكَهَا. فَرَمَى بهَا فِى الْبَحْرِ حَتَّى وَلَجَتْ فيه، ثُمَّ انْصَرَفَ ، وَهُوَ فِى ذَلِكَ يَلْتَمِسُ مَرْكَباً يَخْرُجُ إِلَى بَلَده، فَخَرَجَ الرَّجُلُ الَّذى كَانَ أَسْلَفَهُ لِيَنْظُرُ لَعَلَّ مَرْكباً يَجيئُهُ بِمَاله، فإِذَا بِالْخَشَبَة الَّتى فِيهَا الْمَالُ، فَأَخَذَهَا لأَهْله حَطَباً، فَلَمَّا كَسَرها وَجَدَ الْمَالَ والصَّحيفَةَ، ثُمَّ قَدم الرَّجُلُ الَّذى كَانَ تَسَلَّفَ مِنْهُ، فَأَتَاهُ بِأَلْف دينَار، وَقَالَ: وَالله مَا زِلْتُ جَاهدًا فى طَلَب مَرْكَب لآتيكَ بِمَالكَ، فما وَجَدْتُ مَرْكَباً قَبْلَ الَّذى أَتَيْتُ فيه. قَالَ: هَلْ كُنتَ بَعثتَ إِلىَّ بشَىْء؟ قَالَ: أَلَمْ أُخْبِرْكَ أَنِّى لم أَجدْ مَرْكَباً قَبْلَ هَذَا؟ قَالَ: فإِنَّ اللهَ قَدْ أَدَّى عَنْكَ الَّذى بَعَثْتَ فى الْخَشَبَة، فَانْصَرِفْ بأَلْف دينَار رَاشدًا. هكذا رواه البخارى فى موضعه مُعَلَّقاً بصيغة الجزم،وأسنده فى بعض المواضع من الصحيح. ورواه الإمام أحمد ورواه البزار عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ بنحوه (١).

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ أى: إنَّمَا حَمَلهم على جُحود الحق أنهم يقولون: ليس علينا فى ديننا حَرَج فى أكل أموال الأميّين، وهم العرب؛ فإن الله قد أحلها لنا !.. قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أى: وقد اختلقوا هذه المقالة، وائتفكوا بهذه الضلالة، فإن الله حرم عليهم أكل الأموال إلا بحقها، وإنما هم قوم بُهْت. روى عبد الرزاق : عن صَعْصَعَة بن يزيد :أن رجلا سأل ابن عباس، قال: [إنا] نُصيب فى الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجةَ والشاةَ ؟ قال ابن عباس: فتقولون ماذا؟ قال: نقول: ليس علينا بذلك بأس. قال: هذا كما قال أهل الكتاب: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ إنهم إذا أدوا الجزية لم تَحل لكم أموالهُم إلا بِطيب أنفسهم (٢).

ثم قال تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى﴾ أى:لكن من أوفى بعهده منكم يا أهل الكتاب، الذى عاهدكم الله عليه، من الإيمان بمحمد ﷺ إذا بُعث، كما أخذ العهد والميثاق على الأنبياء وأممهم بذلك،

---

(١) البخارى (٤ / ٣٨٥ ، ٣٨٦ فتح) والمسند (٨٥٧١) وروايته موصولة . ونسبه الحافظ فى الفتح أيضا للنسائى ، والبخارى فى الأدب المفرد ، وابن حبان فى صحيحه .

(٢) رواه الطبرى (٧٢٧٤) من طريق عبد الرزاق ، وإسناده صحيح . وزيادة [أنا] من المطبوعة والطبرى. و « صعصعة ابن يزيد » : تابعى ثقة ، ترجمه البخارى فى الكبير (٢/٢/٣٢١، ٣٢٢) وابن أبى حاتم (٢/١/ ٤٤٦) وأشار البخارى إلى حديثه هذا إشارة موجزة ، كعادته . ويقال فيه : « صعصعة بن زيد » ، وبين البخارى أن الصواب «ابن يزيد » . وذكر ابن حبان فى الثقات (ص٢٢٥ مخطوط مصور) ، ولم يذكر خلافا فى اسم أبيه . ووقع فى ابن كثير مخطوطا ومطبوعا ـ « عن أبى صعصعة » ! وهو خطأ صرف .

obeikandl.com

واتقى محارم الله واتبع طاعته وشرعته التى بعث بها خاتم الرسل وسيد البشر ﴿فإنَّ الله يحبُّ المُتقين﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧)﴾

يقول تعالى: إن الذين يعتاضون عما عاهدوا الله عليه، من اتباع محمد ﷺ، وذكر صفته للناس وبيان أمره، وعن أيمانهم الكاذبة الفاجرة الآثمة ـ بالأثمان القليلة الزهيدة، وهى عروض هذه الدنيا الفانية الزائلة، فـ﴿أولئك لا خلاق لهم في الآخرة﴾ أى: لا نصيب لهم فيها، ولا حظ لهم منها ﴿ولا يكلمهم الله ولا ينظرْ إليهمْ يومَ القيامة﴾ أى: برحمة منه لهم، يعنى: لا يكلمهم الله كلام لطف بهم، ولا ينظر إليهم بعين الرحمة ﴿ولا يُزكيهم﴾ أى: من الذنوب والأدناس، بل يأمر بهم إلى النار ﴿ولهم عذابٌ أليم﴾ وقد وردت أحاديث تتعلق بهذه الآية الكريمة فلنذكر منها ما تيسر :

روى الإمام أحمد: عن أبى ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلاثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ الله ولاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَة وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» قلت: يا رسول الله، من هم؟ خابوا وخسروا. قال: وأعاده رسول الله ﷺ ثلاث مرات قال: «الْمُسْبِل، والْمُنَفِّقُ سلْعَتَهُ بِالْحَلف الْكَاذب، والمنانُ». ورواه مسلم، وأهل السنن(١).

وروى الإمام أحمد عن عدى ـ هو ابن عَميرة الكندى ـ قال: خاصم رجل من كِنْدَةَ يقال له: امرؤ القيس بن عامر رَجلا من حَضْرَمَوْت إلى رسول الله ﷺ فى أرض، فقضى على الحضرمى بالبينة، فلم يكن له بينة، فقضى على امرئ القيس باليمين. فقال الحضرمى: [إن] أمكنته من اليمين يارسول الله ذهبتْ ـ ورب الكعبة ـ أرضى. فقال النبى ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمين كاذبة ليقتطعَ بهَا مَال أحَد لَقىَ الله عَزَّ وجَلَّ وَهُوَ عَلَيْه غَضْبَانُ» وتلا رسول الله ﷺ: ﴿إنَّ الَّذين يَشْتَرُونَ بعهْد اللَّه وأَيْمانهمْ ثمنًا قليلا﴾. فقال امرؤ القيس: ماذا لمن تركها يا رسول الله ؟ فقال: «الجنة» قال: فاشهدْ أنى قد تركتها له كلها. ورواه النسائى(٢).

وروى أحمد عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يمين هو فيها فَاجر، ليقْتَطعَ بهَا مَال امْرِئٍ مُسْلم، لَقىَ الله عَزَّ وجَلَّ وَهُوَ عَلَيْه غَضْبَانُ». فقال الأشعث: فىّ والله كان ذلك، كان بينى وبين رجل من اليهود أرض فجحَدنى، فقدَّمته إلى رسول الله ﷺ فقال لى رسول الله ﷺ: «أَلَكَ بَيِّنة؟» قلتُ: لا، فقال لليهودى: «احْلفْ» فقلتُ: يارسول الله، إذًا يحلف فيذهب مالى. فأنزل الله عز وجل: ﴿إنَّ الَّذين يَشْتَرُونَ بعهْد اللَّه وأَيْمانهمْ ثمنًا قليلا﴾ إلى آخر الآية. أخرجاه (٣). وروى ابن أبى حاتم: عن عبد الله بن أبى أوْفَى: أن رجلا أقام سلعة له فى السوق، فحلف بالله لقد أعْطَى بها ما لم يُعْطه، ليُوقع فيها رجلا من المسلمين، فنزلت هذه الآية: ﴿إنَّ الَّذينَ يَشْتَرُونَ بعهْد الله وأَيْمانهمْ ثمنًا قليلا﴾ ورواه البخارى. وروى الإمام أحمد أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلاثَة لا يُكَلِّمُهُمُ الله يَوْمَ الْقيَامَة وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلاَ يُزَكِّيهمْ ولَهم عذابٌ أليم: رَجُلٌ مَنَعَ ابْنَ السَّبيل فَضْلَ مَاء عنْدهُ، وَرَجُلٌ حَلَفَ عَلَى سلْعَة بَعْدَ الْعَصْر ـ يَعْنى كَاذبًا ـ وَرَجُلٌ بَايَعَ إمَامًا، فإنْ أعْطاهُ وَفَى لَهُ، وإن لَّم يُعْطه لَمْ يَف لَهُ». ورواه أبو داود، والترمذى، وقال الترمذى: حسن صحيح(٤).

(١) المسند (٥ / ١٤٨ حلبى). وقد مضى من رواية مسلم.
(٢) المسند (٤ / ١٩١، ١٩٢ حلبى). وتفصيل تخريجه فى الطبرى (٧٢٨٠). وزيادة [إن] من المسند.
(٣) المسند (٣٥٩٧) والبخارى (٥/ ٥٣، ٢٠٦ فتح) ومسلم (١ / ٣٩ ـ ٥٠) والطبرى (٧٢٧٩).
(٤) المسند (١٠٢٣١). ورواه أيضا أطول من ذلك (٧٤٣٥).

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

يخبر تعالى عن اليهود، علَيهم لعائن الله، أن منهم فريقا يُحَرِّفون الكلم عن مَواضعه ويُبَدِّلون كلام الله، ويزيلونه عن المراد، ليُوهموا الجهلة أنه فى كتاب الله كذلك، وينسبونه إلى الله، وهو كذب على الله، وهم يعلمون من أنفسهم أنهم قد كذبوا وافتروا فى ذلك كله؛ ولهذا قال: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. وقال مجاهد والشعبى وغيرهما: ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ﴾: يحرفونه. وقال وهب بن مُنَبِّه: إن التوراة والإنجيل كما أنزلهما الله لم يغير منهما حرف، ولكنهم يُضِلّونَ بالتحريف والتأويل، وكتب كانوا يكتبونها من عند أنفسهم، ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ فأما كتب الله فإنها محفوظة ولا تُحوَّل. رواه ابن أبى حاتم، فإن عَنَى وَهْب ما بأيديهم من ذلك، فلا شك أنه قد دخلها التبديل والتحريف والزيادة والنقص، وأما تعريب ذلك المشاهد بالعربية ففيه خطأ كبير، وزيادات كثيرة ونقصان، ووَهْم فاحش. وهو من باب تفسير المعبِّر المعرِّب، وفَهْم كثير منهم ـ بل أكثرهم، بل جميعهم ـ فاسد. وأما إن عَنَى كتبَ الله التى هى كتبه عندَه، فتلك ـ كما قال ـ محفوظة لم يدخلها شىء.

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۚ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

روى ابن إسحاق عن ابن عباس، قال: قال أبو رافع القُرَظى، حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران، عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام: أتريد يا محمد أن نعبدكَ كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم؟ فقال رجل من أهل نجران نصرانى يقال له الرئيس: أوَ ذاك تريد منا يا محمد، وإليه تدعونا؟ أو كما قال. فقال رسول الله ﷺ: «مَعَاذَ اللهِ أنْ نَعْبُدَ غَيْرَ اللهِ، أو أنْ نَأْمُرَ بِعِبَادَةِ غَيْرِه، مَا بِذَلِكَ بَعَثَنِى، وَلا بِذَلِكَ أمَرَنِى». أو كما قال ﷺ، فأنزل الله عز وجل فى ذلك من قولهما: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ إلى قوله: ﴿بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

فقوله: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّى مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أى: ما ينبغى لبشر آتاه الله الكتاب والحُكْم والنبوة أن يقول للناس: اعبدونى من دون الله. أى: مع الله، وإذا كان هذا لا يصلح لنبى ولا لمرسل، فلأن لا يصلح لأحد من الناس غيرهم بطريق الأولى والأحرى؛ ولهذا قال الحسن البصرى: لا ينبغى هذا لمؤمن أن يأمر الناس بعبادته. قال: ذلك أن القوم كان يعبد بعضهم بعضا ـ يعنى أهل الكتاب ـ كانوا يَتعبَّدون لأحبارهم ورهبانهم، كما قال الله تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ الآية [التوبة: ٣١] وفى المسند، والترمذى ـ كما سيأتى ـ أن عَدىّ بن حاتم قال: يا رسول الله، ما عبدوهم. قال: «بَلَى، إِنَّهُمْ أَحَلُّوا لَهُمُ الْحَرَامَ وَحَرَّمُوا عَلَيْهِمُ الْحَلاَلَ، فَاتَّبَعُوهُمْ، فَذَلِكَ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ» (١). فالجهلة من الأحبار والرهبان ومشايخ الضلال يدخلون فى هذا الذم والتوبيخ، بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين، فإنما يأمرون بما يأمَرَ الله به وبلغتهم إياه

(١) سيأتى عند تفسير الآية: (٣١) من سورة التوبة.

رسله الكرام. وإنما يَنْهَوْنهم عما نهاهم الله عنه وبلغتهم إياه رسله الكرام، فالرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعينَ، هم السفراء بين الله وبين خلقه فى أداء ما حملوه من الرسالة وإبلاغ الأمانة، فقاموا بذلك أتم القيام، ونصحوا الخلق، وبلغوهم الحق.

وقوله: ﴿وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أى: ولكن يقول الرسول للناس: كونوا ربَّانيين. قال ابن عباس وغير واحد : أى حكماء علماء حلماء. وقال الحسن وغير واحد: فقهاء.

وقال الضحاك فى قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾: حَقٌّ على من تعلم القرآن أن يكون فَقيهاً: ﴿تَعْلَمُونَ﴾ أى: تفهمون معناه. وقرئ ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ بالتشديد من التعليم[1] ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾: تحفظون ألفاظه.

ثم قال: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ أى: ولا يأمركم بعبادة أحد غير الله، لا نبى مرسل ولا ملك مُقَرَّب ﴿أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أى: لا يَفْعَلْ ذلك؛ لأنَّ من دعا إلى عبادة غير الله فقد دعا إلى الكفر، والأنبياء إنما يأمرون بالإيمان، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ الآية [النحل: ٣٦]، وقال: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ من رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا من دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال إخباراً عن الملائكة: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٩].

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق كل نبى بعثه من لدن آدم، عليه السلام، إلى عيسى، عليه السلام، لَمَهْمَا آتى الله أحدَهم من كتاب وحكمة، وبلغ أىّ مبلَغ، ثم جاءه رسول من بعده، ليؤمنَنَّ به ولينصرنَّه، ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من اتباع من بعث بعده ونصرته؛ ولهذا قال تعالى وتقدس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ أى: لمهما أعطيتكم من كتاب وحكمة ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾ قال ابن عباس، ومجاهد : يعنى عهدى.

﴿ قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ. فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ أى : عن هذا العهد والميثاق ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ . قال على بن أبى طالب وابن عمه ابن عباس : ما بعث الله نبيا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بُعِث محمد وهو حَىّ ليؤمنن به ولينصرنه، وأمَرَه أن يأخذ الميثاق على أمته: لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنُنَّ به ولينصرنَّه. وقال طاوس ، والحسن البصرى ، وقتادة : أخذ الله ميثاق

(١) قراءة التشديد هذه ـ هى قراء ابن عامر وعاصم والكسائى ، والقراءة الأولى ـ بفتح التاء وسكون العين وفتح اللام ـ هى قراءة باقى السبعة وغيرهم .

النبيين أن يصدق بعضهم بعضا . وهذا لا يضاد ما قاله علىّ وابن عباس ولا ينفيه، بل يستلزمه ويقتضيه. فالرسول محمد خاتم الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليه، دائما إلى يوم الدين، وهو الإمام الأعظم ، الذى لو وجد فى أى عصر وجد لكان هو الواجب الطاعة المقدَّم على الأنبياء كلهم؛ ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء لما اجتمعوا ببيت المقدس، وكذلك هو الشفيع فى يوم الحشر فى إتيان الرب لفَصْل القضاء، وهو المقام المحمود الذى لا يليق إلا له، والذى يحيد عنه أولو العزم من الأنبياء والمرسلين، حتى تنتهى النوبة إليه، فيكونَ هو المخصوص به.

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

يقول تعالى منكرًا على من أراد دينا سوى دين الله، الذى أنزل به كتبَه وأرسل به رسلَه، وهو عبادته وحده لا شريك له، الذى ﴿لَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أى: استسلم له من فيهما طوعا وكرها، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ. وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ . يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٤٨ ـ ٥٠]. فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله، والكافر مستسلم لله كرها، فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم ، الذى لا يُخالَف ولا يمانَع . ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ أى : يوم المَعَاد ، فيجازى كلا بعمله.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ يعنى: القرآن ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أى: من الصحف والوحى ﴿وَالأَسْبَاطِ﴾ وهم بُطون بنى إسرائيل المتشعبة من أولاد إسرائيل ـ هو يعقوب ـ الاثنى عشر ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ يعنى: بذلك التوراة والإنجيل ﴿وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ وهذا يَعُم جميعَ الأنبياء جملة ﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ يعنى: بل نؤمن بجميعهم ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾: فالمؤمنون من هذه الأمة يؤمنون بكل نبى أرسل، وبكل كتاب أنزل، لا يكفرون بشىء من ذلك بل هم مُصَدِّقون بما أنزل من عند الله، وبكل نبى بعثه الله.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ أى: من سلك طريقاً سوى ما شَرَعه الله فلن يُقْبل منه ﴿وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ كما قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح: «مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» (١). وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة ، قال: قال رسول الله ﷺ: «تَجِيءُ الأَعْمَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَتَجِيءُ الصَّلاَةُ فَتَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَا الصَّلاَةُ. فَيَقُولُ: إِنَّكِ عَلَى خَيْرٍ. وَتَجِيءُ الصَّدَقَةُ فَتَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَا الصَّدَقَةُ. فَيَقُولُ: إِنَّكِ عَلَى خَيْرٍ. ثُمَّ يَجِيءُ الصِّيَامُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَنَا الصِّيَامُ. فَيَقُولُ: إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ. ثُمَّ تَجِيءُ الأَعْمَالُ، كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: إِنَّكِ عَلَى خَيْرٍ، ثُمَّ يَجِيءُ

(١) مضى عند تفسير الآيتين (٣١، ٣٢) من نفس السورة .

الإسْلامُ فَيَقُولُ: يَا رَب، أنْتَ السَّلامُ وأنَا الإسْلامُ. فَيَقُولُ اللهُ: إنَّكَ عَلَى خَيْرٍ، بِكَ الْيَومَ آخُذُ وبِك أعْطِى، قَالَ اللهُ فِى كِتَابِه: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْه وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ » . تفرد به أحمد(١).

﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾

روى ابن جرير عن ابن عباس قال: كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك، ثم ندم، فأرسل إلى قومه: أن سَلُوا لى رسول الله ﷺ :هل لى من توبة؟ قال: فنزلت: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فأرسل إليه قومُه فأسلم. وهكذا رواه النسائى، وابن حبان، والحاكم،وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٢).

فقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أى: قامتْ عليهم الحُجَجُ والبراهين على صدق ما جاءهم به الرسولُ، ووَضَح لهم الأمرُ، ثم ارتدوا إلى ظُلْمة الشرك، فكيف يستحق هؤلاء الهداية بعد ما تَلَبَّسُوا به من العماية ؟! ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. ثم قال: ﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ أى: يلعنهم الله ويلعنهم خلقه ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: فى اللعنة ﴿لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أى: لا يُفتَّر عنهم العذاب ولا يُخَفَّف عنهم ساعة واحدة.

ثم قال تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وهذا من لطفه وبره ورأفته ورحمته وعائدته على خلقه: أنّ من تاب إليه تاب عليه.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

يقول تعالى متوعداً ومتهدِّداً لمن كفر بعد إيمانه ثم ازداد كفرا، أى: استمر عليه إلى الممات، ومخبرا بأنهم لن تقبل لهم توبة عند الممات ، كما قال : ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء : ١٨] . ولهذا قال هاهنا: ﴿ لَن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴾ أى : الخارجون عن المنهج الحق إلى طريق الغَىِّ . روى

(١) المسند (٨٧٢٧) وهو فى الزوائد (١٠/ ٣٤٥) ، وزاد نسبته لأبى يعلى والطبرانى فى الأوسط . وقال:«وفيه عباد بن راشد، وثقه أبو حاتم وغيره، وضعفه جماعة، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح» . وقد أعله عبد الله بن الإمام أحمد عقب روايته فى المسند ، فقال:« عباد بن راشد ثقة ، ولكن الحسن لم يسمع من أبى هريرة » . وقد بينت صحة هذا الحديث ، ورددت على تعليل عبدالله فى شرح حديث المسند (٧١٣٨) (١٢/ ١١٣ ، ١١٤) .

(٢) الطبرى (٧٣٦٠) والحاكم (٢/ ١٤٢) ووافقه الذهبى على تصحيحه. ورواه أحمد أيضا فى المسند (٢٢١٨) وإسناده صحيح.

أبو بكر البزار عن ابن عباس ؛ أن قوما أسلموا ثم ارتدوا ، ثم أسلموا ثم ارتدوا ، فأرسلوا إلى قومهم يسألون لهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ ، فنزلت هذه الآية : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ . وإسناده جيد .

ثم قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ﴾ أى: من مات على الكفر فلن يقبل منه خير أبداً، ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهبا فيما يراه قُرْبة، كما سئل النبى ﷺ عن عبد الله بن جُدْعان ـ وكان يُقْرِى الضيفَ، ويَفُكُّ العانى، ويُطعم الطعام ـ: هل ينفعه ذلك؟ فقال: «لا، إنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ: رَبِّ اغْفِرْ لى خَطِيئَتِى يوم الدِّينِ» (١) .

وكذلك لو افتدى بملء الأرض أيضًا ذهبا ما قبل منه،كما قال تعالى : ﴿ولا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣]، وقال: ﴿لاَ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ﴾ [إبراهيم: ٣١]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦]؛ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ﴾ فعطف ﴿وَلَوِ افْتَدَى بِهِ﴾ على الأول، فدل على أنه غيره،وما ذكرناه أحسن من أن يقال: إن الواو زائدة،والله أعلم.ويقتضى ذلك ألا ينقذه من عذاب الله شىء،ولو كان قد أنفق مثل الأرض ذهبا،ولو افتدى نفسه من الله بملء الأرض ذهبا، بوَزْن جبالها وتلالها وتُرابها ورمَالها وسَهْلها ووعْرِها وبَرِّها وبَحْرِها.وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال : « يُقَالُ للرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النارِ يَوم الْقِيَامَةِ : أَرأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ شَىْءٍ، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهِ ؟ قَالَ: فَيَقُولُ:نعم. قال: فيقول: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ، قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِى ظَهْرِ أَبِيكَ آدَمَ أَلاَّ تُشْرِكَ بِى شَيْئًا، فَأَبَيْتَ إِلا أَنْ تُشْرِكَ بِى». وأخرجه البخارى، ومسلم(٢).

ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ أى: وما لهم من أحد يُنْقذهم من عذاب الله، ولا يجيرهم من أليم عقابه.

﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: كان أبو طلحة أكثر أنصارى بالمدينة مالا، وكانَ أحَبَّ أمواله إليه بيْرَحاءُ ـ وكانت مُسْتقْبلة المسجد، وكان النبى ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيِّب ـ قال أنس: فلما نزلت: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قال أبو طلحة: يا رسول الله، إن الله يقول:﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحبَّ أموالى إلَىَّ بيْرَحاءُ ، وإنها صدقة لله، أرجو برَّها وذُخْرَها عند الله تعالى، فَضَعْها يا رسول الله حيث أراك الله. فقال النبى ﷺ :«بَخٍ بَخٍ، ذَاكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَاكَ مَالٌ رابِح، وَقَدْ سَمِعْتُ، وَأَنَا أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِى الأَقْرَبِينَ». فقال أبو طلحة: أَفْعَلُ يارسول الله. فَقَسَمها أبو طلحة فى أقاربه وبنى عمه. أخرجاه . وفى الصحيحين أن عُمَر قال: يارسول الله، لم أُصِبْ مالاً قطُّ

(١) رواه أحمد فى المسند (٦/ ٩٣ حلبى) من حديث عائشة ، وكذلك رواه مسلم (١/ ٧٨) ورواه أيضا من حديثها (٦/ ١٢٠) بإسناد آخر صحيح .

(٢) المسند (١٢٣١٦) .

(٣) المسند (١٢٤٦٥) من طريق مالك . وهو فى الموطأ (٩٩٥ ، ٩٩٦) ورواه الطبرى مختصرا (٧٣٩٤ ، ٧٣٩٥) . وفصلنا تخريجه هناك .

هو أنفَسُ عندى من سهمى الذى هو بخَيْبَرَ، فما تأمرنى به؟ قال: «حَبِّس الأصْل، وسَبِّلِ الثَّمرَة»(١).

الجزء ٤

﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: حضرت عصابة من اليهود نبيّ الله ﷺ فقالوا: حدِّثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبى؟ [فذكر الحديث ،وفيه أنهم قالوا] :أخبِرْنَا أىَّ الطعام حَرَّمَ إسرائيل على نفسه ؟ [وأن رسول الله ﷺ قال لهم] : « أنْشُدُكُمْ بِالَّذى أنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى:هَلْ تَعْلَمُونَ أنَّ إسْرَائيلَ مَـرِض مَـرَضًا شَديداً وَطال سُقْمُهُ، فَنَذَرَ لله نَذْرًا ، لَئِنْ شَفَاهُ اللهُ من سُقْمه ليحرِّمَنَّ أحبَّ الشَّرَابِ إليه وأحبَّ الطَّعام إلَيْه،وكان أحبَّ الطَّعَامِ إلَيْهِ لُحْمَان الإبل،وأحبَّ الشَّرَابِ إلَيْهِ ألْبَانُهَا ؟» فقالوا:اللهم نعم. قال:«اللَّهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْهِمْ»(٢).

وقوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ﴾ أى:حرم ذلك على نفسه من قبل أن تنزل التوراة. قلت: ولهذا السياق بعد ما تقدم مناسبتان:

إحداهما: أن إسرائيل، عليه السلام، حرّم أحب الأشياء إليه وتركها لله، وكان هذا سائغًا فى شريعتهم ، فله مناسبة بعد قوله: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾. فهذا هو المشروع عندنا وهو الإنفاق فى طاعة الله مما يحبُّه العبد ويشتهيه، كما قال: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧]. وقال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ [الإنسان: ٨].

المناسبة الثانية : لَمَّا تقدّم السياق فى الرد على النصارى ، واعتقادهم الباطل فى المسيح وتبيين زَيْف ما ذهبوا إليه . وظهور الحق واليقين فى أمر عيسى وأمه، وكيف خلقه الله بقدرته ومشيئته، وبعثه إلى بنى إسرائيل يدعو إلى عبادة ربه تعالى ـ شَرَعَ فى الرد على اليهود، قَبَّحهم الله، وبيان أن النَّسْخ الذى أنكروا وقوعه وجوازه قد وقع، فإن الله، عز وجل، قد نصَّ فى كتابهم التوراة:أن نوحا، عليه السلام، لما خرج من السفينة أباح الله له جميع دواب الأرض يأكل منها، ثم بعد هذا حرّم إسرائيل على نفسه لُحمان الإبل وألبانها ، فاتبعه بنوه فى ذلك ، وجاءت التوراة بتحريم ذلك ، وأشياء أخر زيادة على ذلك. وكان الله ، عز وجل،قد أذن لآدم فى تزويج بناته من بنيه ، وقد حرَّم ذلك بعد ذلك . وكان التَّسَرِّى على الزوجة مباحا فى شريعة إبراهيم عليه السلام ، وقد فعله الخليل فى هاجر لما تسرَّى بها على سارّة ، وقد حُرِّم مثل هذا فى التوراة عليهم . وكذلك كان الجمع بين الأختين سائغا ، وقد فعله يعقوب، عليه السلام ، جمع بين الأختين ، ثم حُرِّم ذلك عليهم فى التوراة . وهذا كله منصوص عليه فى التوراة عندهم، فهذا هو النسخ بعينه، فكذلك فليكن ما شرعه الله للمسيح، عليه السلام، فى إحلاله بعض ما حرم فى التوراة ، فما بالهم لم يتبعوه ؟! بل كذبوه وخالفوه !! وكذلك ما بعث الله به محمدا

---

(١) انظر : المسند (٥٩٤٧ ، ٦٤٦٠) من حديث ابن عمر .

(٢) ساق الحافظ ابن كثير ـ هنا ـ الحديث (٢٥١٤) من المسند ، بطوله ، ثم ذكره برواية أخرى من المسند (٢٤٨٣) ، وذكر أن هذا الأخير رواه الترمذى والنسائى بنحوه . وقد اقتصرنا على موضع الشاهد المناسب للآية من أولهما؛ لأن الحديث مضى مطولا عند تفسير الآية : ٩٧ من سورة البقرة من رواية الطبرى . وأشرنا هناك إلى هذا الموضع .

من الدين القويم، والصراط المستقيم، وملَّة أبيه إبراهيم فما بَالَهم لا يؤمنون؟! ولهذا قال تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ﴾ أى: كان حلا لهم جميعُ الأطعمة قبل نزول التوراة إلا ما حرَّمه إسرائيل، ثم قال: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ فإنها ناطقة بما قلناه ﴿فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أى: فمن كَذَب على الله وادَّعى أنه شَرَع لهم السبت والتمسك بالتوراة دائمًا، وأنه لم يبعث نبيا آخر يدعو إلى الله بالبراهين والحُجَج بعد هذا الذي بيَّناه من وقوع النسخ وظهور ما ذكرنا ـ ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ أى: قل يا محمد: صدق فيما أخبر به وفيما شرعه فى القرآن ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أى: اتبعوا ملة إبراهيم التى شرعها الله فى القرآن على لسان محمد ﷺ، فإنه الحق الذى لاشك فيه ولا مِرْية، وهى الطريقة التى لم يأت نبى بأكمل منها ولا أبين ولا أوضح ولا أتم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

يُخبر تعالى أن أول بيت وُضع للناس، أى: لعموم الناس، لعبادتهم ونُسُكهم، يَطُوفون به ويُصلُّون إليه ويَعتكفُون عنده ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ يعنى: الكعبة التى بناها إبراهيم الخليل، الذى يَزعُم كل من طائفتى النصارى واليهود أنهم على دينه ومنهجه، ولا يَحجُّون إلى البيت الذى بناه عن أمر الله له فى ذلك ونادى الناس إلى حجه. ولهذا قال: ﴿مُبَارَكًا﴾ أى وُضع مباركا ﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾.

وقد روى الإمام أحمد عن أبى ذَر، قال: قلتُ: يا رسولَ الله، أىُّ مَسجد وُضع أوَّلُ ؟ قال: «الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ». قلت: ثم أىٌّ؟ قال: «الْمَسجِدُ الأَقْصَى». قلت: كم بينهما ؟ قال: «أَرْبَعُونَ سَنَةً». قلتُ: ثم أىٌّ ؟ قال: ثُم حَيْثُ أدْرَكَتْ الصَلاةَ فَصَلِّ، فَكُلُّهَا مَسْجِدٌ». وأخرجه البخارى، ومسلم(١). وروى ابن أبى حاتم عن علىّ فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ قال: كانت البيوت قبلة، ولكنه كان أول بيت وضع لعبادة الله (٢). وعن خالد بن عَرْعَرة قال: قام رجل إلى علىّ فقال: ألا تُحَدِّثنى عن البيت: أهو أولُ بيت وُضع فى الأرض؟ قال: لا، ولكنه أول بيت وضع فيه البركة، مقام إبراهيم، ومن دخله كان آمنا (٣). وزعم السُّدِّى أنه أولُ بيت وضع على وجه الأرض مطلقا ! والصحيحُ قولُ علىّ.

(١) المسند (٥ / ١٥٠ حلبى) والبخارى (٦ / ٢٩٠ ـ ٢٩٢، ٣٣٢، ٣٣٣ فتح) ومسلم (١/ ١٤٦) وروى الطبرى (٧٤٣٤) قطعة من أوله.

(٢) إسناد ابن أبى حاتم فيه « مجالد بن سعيد ». وهو حسن الحديث. ولكن الحافظ ابن حجر ذكر هذا الأثر عن علىّ، فى الفتح (٦ / ٢٩٠) وقال: « أخرجه إسحاق بن راهويه وابن أبى حاتم وغيرهما بإسناد صحيح ». فلعل له اسنادا آخر. أو لعل الحافظ ذهب إلى صحيح رواية مجالد.

(٣) إسناده صحيح، وهو جزء من خبر مطول، رواه الطبرى مطولا ومختصرا (٢٠٥٨ ـ ٢٠٦٠، ٧٤٢٢، ٧٤٢٣). وقد ذكره الحافظ ابن كثير مطولا، وحذفناه وأشرنا إليه فيما مضى عند تفسير الآية (١٢٥).

وقوله تعالى: ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ بَكَّة: من أسماء مكة على المشهور، قيل: سُمِّيت بذلك لأنها تَبُكّ أعناق الظلمة والجبابرة، بمعنى:يبكون بها ويخضعون عندها. وقيل: لأن الناس يتباكّون فيها، أى: يزدحمون.وعن ابن عباس قال: مكّة من الفجّ إلى التنعيم، وبكّة من البيت إلى البطحاء.وقال إبراهيم: بَكَّة: البيت والمسجد. وكذا قال الزهرى.وقال عكرمة: البيت وما حوله بكة، وما وراء ذلك مكة. وقد ذكروا لمكة أسماء كثيرة [منها]: مكة، وبكة، والبيت العتيق، والبيت الحرام، والبلد الأمين،وأم القُرَى، والقادس ؛ لأنها تطهر من الذنوب،والمقدسة ، والبلدة ،والكعبة.

وقوله: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ أى:دلالات ظاهرة أنه من بناء إبراهيم، وأن الله تعالى عَظَّمه وشرفه. ثم قال تعالى: ﴿ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ يعنى: الذى لَمَّا ارتفع البناء استعان به على رفع القواعد منه والجدران، حيث كان يقف عليه ويناوله ولده إسماعيل، وقد كان ملصقًا بجدار البيت، حتى أخّره عُمَر بن الخطاب، فى إمارته إلى ناحية الشرق ،بحيث يتمكن الطُّوَّاف، ولا يُشَوِّشون على المصلين عنده بعد الطواف؛ لأن الله تعالى قد أمرنا بالصلاة عنده حيث قال:﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]. وقد قدمنا الأحاديث فى ذلك، فأغْنَى عن إعادتها هاهنا،ولله الحمد والمنة . وقال ابن عباس فى قوله: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ أى: فمنهُنّ مقام إبراهيم والمشاعر. وقال مجاهد: أثرُ قدميه فى المقام آية بينة. وكذا روى عن عُمر بن عبد العزيز، والحسن، وقتادة ، وغيرهم.

وقوله: ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ يعنى: حَرَمُ مكة إذا دخله الخائف يأمنُ من كل سوء، وكذلك كان الأمر فى حال الجاهلية ، كما قال الحسن البصرى وغيره : كان الرجل يَقْتُل فيَضَع فى عُنُقه صوفة ويدخل الحرم فيلقاه ابنُ المقتول فلا يُهَيِّجْهُ حتى يخرج . وقال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ. الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش:٣، ٤] وحتّى إنه من جُمْلة تحريمها حُرْمة اصطياد صيدها وتَنْفيره عن أوكاره، وحُرْمة قطع شجرها وقَلْع حَشيشها،كما ثبتت الأحاديث والآثار فى ذلك عن جماعة من الصحابة مرفوعا وموقوفاً: ففى الصحيحين، واللفظ لمسلم، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «لاَهجْرَةَ وَلَكِنْ جِهَادٌ ونية، وإذَا استُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا»، وقال يوم فتح مكة: «إنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحرمَةِ الله إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ،وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلى، ولم يحل لى إلا فى ساعة من نهار ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لاَ يُعْضَد شَوْكُهُ ، ولا يُنَفَّرُ صَيْدُهُ، ولا يَلْتَقِطُ لُقَطتَه إلا من عَرَّفها ، ولا يُخْتَلَى خَلاها » ، فقال العباس : يا رسول الله ، إلا الإذْخِرَ، فإنه لقَيْنهم ولبُيوتهم، فقال:«إلا الإذخر» (١). ولهما عن أبى هريرة، مثله أو نحوه .ولهما واللفظَ لمسلم أيضاً عَن أبى شُرَيح العَدوى أنه قال لعَمْرو بن سعيد ، وهو يبعث البعوث إلى مكةَ : ائذَنْ لى أيها الأمير أن أُحدِّثك قَولا قام به رسول الله ﷺ الغَدَ من يوم الفتح ، سَمِعتْه أذناى ووعاه قلبى وأبصرته عيناى حين تكلم به ، إنه حَمد الله وأثنى عليه ثم قال : « إنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللهُ وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ، فَلاَ يَحِلُّ لامرئ يُؤْمِنُ بالله وَالْيَوْمِ الآخرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا، ولا يَعْضد بهَا شَجَرَةً، فَإِنْ أحَد تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ الله ﷺ فِيهَا فَقُولُوا له: إنَّ اللهَ أذِنَ لنبيه وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ، وإنَّمَا أذِنَ لى فِيهَا سَاعَةً

(١) مسلم (١/٣٨٣) وكذلك رواه البخارى (٦/٢٠٢، ٢٠٣ فتح). وقد مضى منه قوله: « إن هذا البلد حرمه الله ...» إلخ عند تفسير الآية : ١٢٥ .

obeikandl.com

مِنْ نَهَارٍ، وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالأَمْسِ فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ» فقيل لأبى شُرَيح: ما قال لك عَمْرو؟ قال: أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح، إن الحَرَم لا يُعِيذ عاصيا ولا فَارا بدَم ولا فارا بخَرْبَة(١). وعن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لاَيَحِلُّ لأحَدِكُمْ أنْ يَحْمِلَ السِّلاَحَ بِمكَّةَ» رواه مسلم. وعن عبد الله بن عَدِىّ بن الحمراء الزهرى أنه سمع رسول الله ﷺ يقول، وهو واقف بالحَزْوَرَة فى سوق مكة: «والله إنَّكَ لَخَيْرُ أرْضِ الله، وأحَبُّ أرْضِ الله إلَى الله، ولَوْلاَ أنِّى أُخْرِجْتُ مِنْك مَا خَرَجْتُ». رواه الإمام أحمد، وهذا لفظه، والترمذى، والنسائى، وابن ماجة. وقال الترمذى: حسن صحيح(٢)، وكذا صَحَّح من حديث ابن عباس نحوه. وروى أحمد عن أبى هريرة، نحوه.

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ هذه آية وُجُوب الحج عند الجمهور. وقيل: بلى هى قوله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦] والأول أظهر. وقد وَرَدَت الأحاديثُ المتعددة بأنه أحدُ أركان الإسلام ودعائمه وقواعده، وأجمع المسلمون على ذلك إجماعا ضروريا، وإنما يجب على المكلَّف في العُمْر مَرّة واحدة بالنص والإجماع. روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «أيُّهَا النَّاسُ، قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمُ الحَجُّ فَحُجُّوا». فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت، حتى قالها ثلاثاً. فقال رسول الله ﷺ: «لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ، لَوَجَبَتْ، وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ». ثم قال: «ذَرُونِى مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤالِهِمْ وَاخْتِلاَفِهِمْ عَلَى أنْبِيَائِهِمْ، وإذَا أمَرْتُكُمْ بِشَىْءٍ فَأتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وإذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَىْءٍ فَدَعُوهُ». ورواه مسلم نحوه(٣). وعن ابن عباس قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «يَأيُّهَا النَّاسُ، إنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الحَجَّ». فقام الأقرع بن حابس فقال: يا رسول الله، أفى كل عام؟ قال: «لَوْ قُلْتُهَا، لَوَجَبَتْ، ولَوْ وَجَبَتْ لَمْ تَعْمَلُوا بِهَا، وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أنْ تَعْمَلُوا بِهَا؛ الحَجُّ مَرَّةٌ، فَمَنْ زَادَ فَهُوَ تَطَوُّعٌ». رواه أحمد، وأبو داود، والنسائى، وابن ماجة، والحاكم(٤) وروى من حديث أسامة بن زيد.

وفى الصحيحين عن جابر، عن سُراقة بن مالك قال: يا رسول الله، مُتْعَتنا هذه لعامنا هذا أم للأبد؟ قال: «لاَ، بَلْ لِلأَبَدِ». وفى رواية: «بل لأبَد أبَد»(٥). وفى مسند الإمام أحمد، وسنن أبى داود، من حديث أبى واقد الليثى، أن رسول الله ﷺ قال لنسائه فى حجته: «هَذِه ثُمَّ ظُهُورَ الحُصُرِ»(٦)

---

(١) مسلم (١/ ٣٨٣، ٣٨٤) ورواه أحمد فى المسند (١٦٤٤٤، ١٦٤٤٨) مطولا ومختصرًا. ورواه البخارى (١/ ١٧٦، ١٧٧، ٤/ ٣٥ ـ ٣٩ فتح). وروى الطبرى بعضه (٢٠٢٧). وقوله: «ولا فارًا بخربة»: بالخاء المعجمة والراء المفتوحتين. قال ابن الأثير: «الخربة أصلها العيب، والمراد بها ههنا: الذى يفر بشىء يريد أن ينفرد به ويغلب عليه، مما لا تجيزه الشريعة».

(٢) المسند (٤/ ٣٠٥ حلبى). وسيذكره الحافظ ابن كثير مرة أخرى، عند تفسير الآية: ٧ من سورة الشورى. و«الحزورة» ضبطها ياقوت وابن الأثير ـ بفتح الحاء المهملة وسكون الزاى ثم واو فراء مفتوحتين. قال ياقوت: «قال الدارقطنى: كذا صوابه، والمحدثون يفتحون الزاى ويشددون الواو، وهو تصحيف». وقال ابن الأثير: «قال الشافعى: الناس يشددون «الحزورة» و«الحديبية» ـ وهما مخففتان». وقال يا قوت: «كانت الحزورة سوق مكة، وقد دخلت فى المسجد لما زيد فيه».

(٣) المسند (١٠٦١٥) وصحيح مسلم (١/ ٣٧٩).

(٤) المسند مرارا، أولها: (٢٣٠٤) وخرجناه هناك. وهو عند الحاكم (٢/ ٢٩٣) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبى.

(٥) هو جزء من حديث لجابر بن عبد الله، فيه: «أن سراقة بن مالك ...». فى البخارى (٤/ ٤٨٤، ٤٨٥ فتح). ومسلم (١/ ٣٤٤، ٣٤٥).

(٦) المسند (٥/ ٢١٨، ٢١٩ حلبى). وأبو داود (١٧٢٢). وأسانيده صحاح. ورواه أحمد أيضًا، بإسناد صحيح، من حديث أبى هريرة (٩٧٦٤).

يعنى: ثم الزَمْنَ ظُهور الحصر، ولا تخرجن من البيوت (١).

وأما الاستطاعة فأقسام: تارة يكون الشخص مستطيعا بنفسه، وتارة بغيره، كما هو مقرر فى كتب الأحكام. وروى الحاكم عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ سئل عن قول الله عز وجل : ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ فقيل :ما السبيل ؟ قال: «الزَّاد والرَّاحِلَة». ثم قال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه (٢). وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ : «تَعَجَّلُوا إِلَى الحَجِّ ـ يعنى الفريضة ـ فإنَّ أحَدَكُمْ لاَ يَدْرِى مَا يَعْرِضُ لَهُ». وروى عنه أيضا مرفوعا « مَنْ أرَادَ الحَجَّ فَلْيَتَعَجَّل». ورواه أبو داود (٣).

وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: أى ومن جَحَد فريضة الحج فقد كفر، والله غنى عنه. روى أبو بكر الإسماعيلى الحافظ عن عمر بن الخطاب قال: من أطاق الحج فلم يحج، فسواء عليه مات يهوديا أو نصرانيا. وإسناده صحيح إلى عمر(٤) وروى سَعيد بن منصور فى سننه عن الحسن البصرى قال: قال عمر بن الخطاب: لقد هممت أن أبعث رجالا إلى هذه الأمصار فينظروا كل من كان له جِدةٌ فلم يحج، فيضربوا عليهم الجِزْية، ما هم بمسلمين، ما هم بمسلمين.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩)﴾

هذا تعنيف من الله تعالى لكَفَرة أهل الكتاب، على عنادهم للحق، وكفرهم بآيات الله، وصَدِّهم عن سبيله مَنْ أراده من أهل الإيمان بجهدهم وطاقتهم ، مع علمهم بأن ما جاء به الرسول حق من الله، بما عندهم من العلم عن الأنبياء الأقدمين ، والسادة المرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وما بَشَّروا به ونوَّهُوا، من ذِكْر النبى الأميّ الهاشمى العربى المكّىّ، سيد ولد آدم، وخاتم الأنبياء، ورسول رب الأرض والسماء. وقد توعدهم الله تعالى على ذلك بأنه شهيد على صَنِيعهم ذلك بما خالفوا ما بأيديهم عن الأنبياء، ومقابلتهم الرسول المُبشر بالتكذيب والجحود والعناد، وأخبر تعالى أنه ليس بغافل عما يعملون، أى: وسيجزيهم على ذلك يوم لا ينفعهم مال ولا بنون.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١)﴾

---

(١) فإذا كان هذا فى النهى عن الحج بعد حجة الفريضة ، على أن الحج من أعلى القربات عند الله ـ فما بالك بما يصنع النساء المتسيبات للإسلام فى هذا العصر، من التنقل فى البلاد ، حتى ليخرجن سافرات عاصيات ماجنات إلى بلاد الكفر، وحدهن دون محرم ، أو مع زوج أو محرم كأنه لا وجود له ! فأين الرجال ! أين الرجال ؟!

(٢) رواه الحاكم (١/ ٤٤١، ٤٤٢) بإسنادين، صحح أولهما على شرط الشيخين، وثانيهما على شرط مسلم، ووافقه الذهبى.

(٣) الأولى فى المسند (٢٨٦٩) وفى إسناده ضعف . والثانى فيه : (١٩٧٣) بإسناد صحيح . وانظرالمسند أيضا (١٨٣٣، ١٨٣٤).

(٤) وهذا ـ وإن كان موقوفا لفظا ـ فإنه من المرفوع حكما ، كما هو ظاهر ؛ لأن عمر لا يجزم بمثل هذا من قبل نفسه . وذلك الظن به ، إن شاء الله .

يحذر تعالى عباده المؤمنين عن أن يطيعوا طائفة من أهل الكتاب ، الذين يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله، وما منَحهم به من إرسال رسوله، كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة: ١٠٩] وهكذا قال هاهنا: ﴿إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ ثم قال: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ يعنى: أن الكفر بعيد منكم وحاشاكم منه؛ فإن آيات الله تنزل على رسوله ليلا ونهاراً، وهو يتلوها عليكم ويبلغها إليكم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: ٨]. وكما جاء فى الحديث: أن رسول الله ﷺ قال يوما لأصحابه: «أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَعْجَبُ إِلَيْكُمْ إِيمَانًا؟» قالوا: الملائكة. قال: «وَكَيْفَ لاَ يُؤْمِنُونَ [وَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ؟!]» وذكروا الأنبياء، قال: «وَكَيْفَ لاَ يُؤْمِنُونَ] وَالْوَحْىُ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ؟» قالوا: فنحن. قال: «وَكَيْفَ لاَ تُؤْمِنُونَ وأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟!». قالوا: فأىّ الناس أعجب إيمانًا؟ قال: «قَوْمٌ يَجِيؤُونَ مِنْ بَعْدِكُمْ يَجِدونَ صُحُفًا يُؤْمِنُونَ بِمَا فِيهَا ». وقد ذكرت سَنَد هذا الحديث والكلام عليه فى أول شرح البخارى، ولله الحمد(١).

ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أى: ومع هذا فالاعتصام بالله والتوكل عليه هو العُمْدة فى الهداية، والعُدَّة فى مباعدة الغَواية، والوسيلة إلى الرشاد، وطريق السداد، وحصول المراد.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

روى ابن أبى حاتم عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ قال: أن يُطاع فلا يُعْصَى، وأن يُذْكَر فلا يُنْسَى، وأن يُشْكَر فلا يُكْفَر. وهذا إسناد صحيح موقوف. وكذا رواه الحاكم وقد رواه ابن مردويه عن ابن مسعود، بنحوه مرفوعا. ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. كذا قال. والأظهر أنه موقوف، والله أعلم(٢).

---

(١) هذا الحديث ذكره الحافظ ابن كثير، فيما مضى من التفسير (٧٤١ ، ٧٥) بإسناده من جزء الحسن بن عرفة، من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. وأعله بأن فى إسناده « المغيرة بن قيس البصرى »، وأن أبا حاتم قال فيه: « منكر الحديث ». ثم أشار هناك إلى رواية للحاكم عن عمر، بمثله أو نحوه. وأعله بأن فى إسناده « محمد بن حميد، وفيه ضعف ». وذكره الحافظ ابن كثير أيضًا ـ دون إسناد أو تخريج ـ فى اختصار علوم الحديث (ص ١٤٣ بشرحنا: الباعث الحثيث) محتجًا به على صحة الوجادة. وخرجه السيوطى فى تدريب الراوى (ص١٤٩ ، ١٥٠)، ونقلنا تخريجه فى (الباعث الحثيث ص ١٤٥). ومجموع طرقه يدل على صحته. والمغيرة بن قيس البصرى: غلا فيه أبو حاتم. والحق أنه ثقة، فقد ترجمه البخارى فى الكبير (٤ / ١/ ٣٢٦) فلم يذكر فيه جرحًا، وذكره ابن حبان فى الثقات، كما نقل الحافظ ابن حجر فى لسان الميزان (٦/ ٧٩). ولم نذكر حديثه هذا هناك (١/ ٩٨)، اكتفاء بحديث فى معناه صحيح، من حديث أبى جمعة الأنصارى. والزيادة التى زدناها فى لفظ الحديث هنا ـ هى من اختصار علوم الحديث. وهى ثابتة بنحوها فى الرواية السابقة. وهى ضرورية، لا يستقيم سياق الكلام بدونها. وقد سقطت فى المخطوطة والمطبوعة هنا.

(٢) هكذا نسب الحافظ ابن كثير الرواية المرفوعة للحاكم، ولكن الرواية التى يشير إليها هى فى المستدرك (٢ / ٢٩٤) موقوفة غير مرفوعة، وكذلك ثبت فى مخطوطة مختصرة للذهبى، إلا أن يكون الحاكم رواه فى موضع آخر مرفوعا، وما أظنه.

وقد ذهب سعيد بن جُبَير وقتادة، ومقاتل وغيرهم إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]. وقال ابن عباس : لم تُنْسخ، ولكن ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ أن يجاهدوا فى سبيله حق جهاده، ولا تأخذهم فى الله لَوْمَة لائم، ويقوموا بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم.

وقوله: ﴿وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أى: حافظوا على الإسلام فى حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه، فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنه من عاش على شىء مات عليه، ومن مات على شىء بُعث عليه. فعياذاً بالله من خلاف ذلك. وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ: «﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ وَلَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قُطِرَتْ لأَمَرَّتْ عَلَى أَهْلِ الأَرْضِ عيشتَهم فَكَيْفَ بِمَنْ لَيْسَ لَه طَعَامٌ إِلاَّ الزَّقُّومُ». وهكذا رواه الترمذى، والنسائى، وابن ماجة، وابن حبَّان فى صحيحه ، والحاكم وقال الترمذى: حسن صحيح. وقال الحاكم: على شرط الشيخين، ولم يخرجاه (١). وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عَمْرو قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ، فَلْتُدْرِكْه مَنِيَّتُهُ، وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَيَأْتِى إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْه»(٢) . وروى الإمام أحمد عن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بثلاث: «لاَ يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلاَّ وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ». ورواه مسلم.

وقوله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا﴾ قيل: ﴿بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ أى: بعهد الله، كما قال فى الآية بعدها : ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٢] أى بعهد وذمة. وقيل: ﴿بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ يعنى: القرآن. وقد وَرَدَ فى ذلك حديث خاص بهذا المعنى، فروى الطبرى عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «كِتَابُ اللهِ، هو حَبْلُ اللهِ الْمَمْدُودُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ» (٣).

وقوله: ﴿وَلا تَفَرَّقُوا﴾: أمَرَهُم بالجماعة ونهاهم عن التفرقة. وقد وردت الأحاديثُ المتعددة بالنهى عن التفرق والأمر بالاجتماع والائتلاف ، كما فى صحيح مسلم عن أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلاثًا، وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلاثًا، يَرْضى لَكُمْ: أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِه شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا، وأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلاَّهُ اللهُ أَمْرَكُمْ؛ وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلاثًا: قيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وإِضَاعَةَ الْمَالِ». وقد ضُمنتْ لهم العصمةُ، عند اتفاقهم، من الخطأ، كما وردت بذلك الأحاديث المتعددة أيضًا، وخِيفَ عليهم الافتراق، والاختلاف، وقد وقع ذلك فى هذه الأمة فافترقوا على ثلاث وسبعين فرقة، منها فرقة ناجية إلى الجنة ومُسَلمة من عذاب النار، وهم الذين على ما كان عليه رسولُ الله ﷺ وأصحابه.

وقوله: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ

(١) المسند (٢٧٣٥) والحاكم (٢/ ٢٩٤) ووافقه الذهبى . ووقع متن الحديث فى المطبوعة مخالفا للمخطوطة ولرواية المسند ، وأثبتناه على الصواب ، وسيذكره الحافظ ابن كثير مرة أخرى عند تفسير الآية (٦٦) من سورة الصافات.

(٢) المسند (٦٨٠٧) . وهو مختصر من حديث مطول بالإسناد نفسه (٦٧٩٣) وبإسناد آخر (٦٥٠٣) ورواه مسلم مطولا (٢/ ٨٧، ٨٨) وسيذكره ابن كثير عند تفسير الآية (١٨٥) من هذه السورة ، من رواية وكيع فى تفسيره ، ثم أشار لرواية المسند .

(٣) الطبرى (٧٥٧٢) . وإسناده ضعيف ، كما فصلنا هناك ، ولكن المعنى صحيح ثابت . فروى ابن حبان فى صحيحه (١٢٣) بتحقيقنا ، عن زيد بن أرقم ـ مرفوعا : « إنى تارك فيكم كتاب الله ، هو حبل الله ، من اتبعه كان على الهدى ، ومن تركه كان على الضلالة » . وقد رواه مسلم مطولا (٢ / ٢٣٨) .

obeikandi.com

مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ وهذا السياق فى شأن الأوس والخزرج، فإنه كانت بينهم حُروبٌ كثيرة فى الجاهلية، وعداوة شديدة وضغائن، وإحَنٌ وذُحُول طال بسببها قتالهم والوقائع بينهم، فلما جاء الله بالإسلام فدخل فيه من دخل منهم ـ صاروا إخوانا متحابين بجلال الله، متواصلين فى ذات الله، متعاونين على البر والتقوى، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ. وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٢] وكانوا على شفا حُفْرة من النار بسبب كفرهم، فأبعدهم الله منها: أنْ هَدَاهُم للإيمان. وقد امتن عليهم بذلك رسولُ الله ﷺ يوم قَسَم غنائم حُنَيْن، فَعتَبَ من عتب منهم لَمَّا فَضَّل عليهم فى القسْمَة بما أراه الله، فخطبهم فقال: «يَا مَعْشَرَ الأنْصَار، أَلَمْ أجدْكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللهُ بِى ؟ وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللهُ بِى؟ وَعَالَةً فَأغْنَاكُمُ اللهُ بِى؟» فكلما قال شيئا قالوا: الله ورسوله أمنّ.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ أى: منتصبة للقيام بأمر الله، فى الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ قال الضحاك: هم خاصّة الصحابة وخاصة الرُّواة، يعنى: المجاهدين والعلماء. والمقصود من هذه الآية أن تكون فرْقَة من الأمَّة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجبا على كل فرد من الأمة بحسبه، كما ثبت فى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ رَأى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَده، فَإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِه، فَإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِه، وَذَلِكَ أضْعَفُ الإيمَانِ». وفى رواية: «وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ»(١).

وروى الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان، أن النبى ﷺ قال: «وَالَّذى نَفْسى بِيَده، لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِه، ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلَا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ». ورواه الترمذى، وابن ماجة، وقال الترمذى: حسن. والأحاديث فى هذا الباب كثيرة مع الآيات الكريمة كما سيأتى تفسيرها فى أماكنها.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: ينهى هذه الأمة أن تكون كالأمم الماضين فى تفرقهم واختلافهم، وتركهم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع

(١) وهم الحافظ ابن كثير هنا وهما شديدا . فحديث « من رأى منكم منكرا» إلخ ـ هو حديث أبى سعيد الخدرى، كما أثبتنا . ولكن الذى قاله ابن كثير هنا :« عن أبى هريرة » . وهو خطأ على اليقين . والحديث فى صحيح مسلم (١/ ٢٩) مطولا، وكذلك رواه الإمام أحمد ، مطولا ومختصرا فى مسند أبى سعيد (١١٠٨٩ ، ١١١٦٧) . ثم قوله: «وفى رواية : وليس وراء ذلك » إلخ ـ لم يكن رواية فى حديث أبى سعيد ، كما يوهم ظاهر كلامه . بل هو جزء من حديث مطول عن ابن مسعود ، رواه مسلم عقب حديث أبى سعيد . فليس لأبى هريرة رواية فى هذا ولا ذاك .

قيام الحجة عليهم. وروى الإمام أحمد عن أبي عامر عبد الله بن لُحَيٍّ قال: حججنا مع معاوية بن أبي سفيان، فلما قدمنا مكة قام حين صلى الظهر فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أهْلَ الْكِتَابَيْنِ افْتَرَقُوا في دينهمْ عَلَى ثنتيْنِ وَسَبْعِينَ ملَّةً، وإنَّ هذه الأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلاَث وَسَبْعِينَ ملَّةً ـ يعني الأهواء ـ كُلُّهَا في النَّار إلا وَاحدَةٌ، وَهيَ الْجَمَاعَةُ، وإنَّهُ سَيَخْرُجُ في أُمَّتي أقْوَامٌ تَجَارَى بهمْ تلْكَ الأهواء، كَمَا يَتَجَارَى الكَلْبُ بصَاحبه، لاَ يَبْقَى منْهُ عرْقٌ وَلاَ مَفْصلٌ إلاَّ دَخلَهُ. والله ـ يَا مَعْشَر العَرَبِ ـ لَئِنْ لَمْ تَقُومُوا بمَا جاء به نَبيُّكُمْ ﷺ لَغَيْرُكم منَ النَّاسِ أحْرَى ألاَّ يَقُومَ به». وهكذا رواه أبو داود، وقد رُوى هذا الحديث من طرق.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ يعني: يوم القيامة، حين تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسودّ وجوه أهل البدْعَة والفرقة، قاله ابن عباس.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾: قال الحسن البصري: وهم المنافقون: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ وهذا الوصف يَعُمّ كل كافر ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ يعني: الجنة، ماكثون فيها أبدا لا يبغون عنها حوَلا. وقد روى الترمذي عن أبي غالب قال: رأى أبو أمامة رؤوسا منصوبة على دَرَج مسجد دمشق، فقال أبو أمامة: كلاب النار، شر قتلى تحت أديم السماء، خَيْرُ قتلى من قتلوه، ثم قرأ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ إلى آخر الآية. قلت لأبي أمامة: أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين أو ثلاثا أو أربعا ـ حتى عَدّ سبعا ـ ما حَدّثتكموه. ثم قال: هذا حديث حسن: وقد رواه ابن ماجة، وأخرجه أحمد بنحوه.

ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ أي: هـذه آيـات الله وحُـجَـجُه وبيناتـه ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: نكشف ما الأمر عليه في الدنيا والآخرة ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي: ليس بظالم لهم بل هو الحكَم العدل الذي لا يجور؛ لأنه القادر على كل شيء، العالم بكل شيء، فلا يحتاج مع ذلك إلى أن يظلم أحدا من خلقه؛ ولهذا قال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ أي: الجميع ملْك له وعبيد له ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ أي: هو المتصرف في الدنيا والآخرة، الحاكم في الدنيا والآخرة.

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

يخبر تعالى عن هذه الأمة المحمدية بأنهم خير الأمم فقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾. روى البخاري عن أبي هريرة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: خَيْر الناس للناس، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام (١). وهكذا قال ابن عباس، ومُجاهد، وعِكْرِمة، وغيرهم:

(١) البخاري (٨ / ١٦٩ فتح)، وهو موقوف لفظا، ولكنه مرفوع حكما. وقد رواه ـ بنحوه ـ البخاري مرفوعا أيضا (٦/ ١٠١ فتح)، وكذلك رواه أحمد في المسند (٨٠٠٠) وابن حبان في صحيحه (١٣٤) مرفوعا.

obeikandi.com

يعني: خَيْرَ الناس للناس. والمعنى: أنهم خيرُ الأمم وأنفع الناس للناس؛ ولهذا قال: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

وروى الإمام أحمد عن دُرَّة بنت أبى لهب ، قالت: قام رجل إلى النبى ﷺ وهو على المنبر، فقال: يارسول الله، أىّ الناس خير؟ فقال: «خَيْرُ النَّاسِ أَقْرَؤُهُمْ وأتقاهم لله، وآمَرُهُمْ بِالمعروف، وأَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَوْصَلُهُمْ لِلرَّحِمِ»(١). وروى أحمد ، والنسائى والحاكم عن ابن عباس فى قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، قال: هم الذين هاجروا مع رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة(٢).

والصحيح أن هذه الآية عامةٌ فى جميع الأمة،كل قَرْن بحسبه، وخير قرونهم: الذين بُعِثَ فيهم رسول الله ﷺ ، ثم الذين يَلونهم، ثم الذين يلونهم، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أى: خيارا ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾. وروى الإمام أحمد، والترمذى، وابن ماجة، والحاكم عن مُعَاوية بن حَيْدَة ، قال: قال رسول الله ﷺ : « أَنْتُمْ تُوفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً ، أَنْتُمْ خَيْرُهَا ، وأكرمها عَلَى اللهِ عزَّ وجَلَّ ». وهو حديث مشهور ، وقد حَسَّنه الترمذى(٣). ويروى من حديث معاذ بن جبل، وأبى سعيد ، نحوه (٤).

وإنما حازت هذه الأمة قَصَبَ السَّبْق إلى الخيرات بنبيها محمد صلوات الله وسلامه عليه، فإنه أشرفُ خلق الله،وأكرم الرسل على الله، وبعثه الله بشرع عظيم لم يُعْطه نبياً قبله ولا رسولا من الرسل. فالعمل على منهاجه وسبيله، يقوم القليلُ منه ما لا يقوم العملُ الكثيرُ من أعمال غيرهم مقامه، كما روى الإمام أحمد عن على بن أبى طالب قال: قال رسول الله ﷺ : «أُعْطِيتُ مَا لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ». فقلنا: يا رسول الله، ما هو؟ قال: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ وأُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الأَرْضِ، وسُمِّيتُ أَحْمَدَ، وجُعِلَ التُّرَابُ لِى طَهُورًا، وجُعِلَتْ أُمَّتِى خَيرَ الأُمَمِ». تفرد به أحمد من هذا الوجه، وإسناده حسن(٥).

وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال: أكثرنا الحديث عند رسول الله ﷺ ذات ليلة، ثم غَدَوْنا إليه فقال: «عُرِضَتْ عَلَىَّ الأَنْبِيَاءُ الليلة بِأُمَمِهَا، فَجَعَلَ النَّبِىُّ يَمُرُّ وَمَعَهُ الثَّلاَثَةُ،والنَّبِىُّ وَمَعَهُ العِصَابَةُ، والنَّبِىُّ ومَعَهُ النَّفَرُ، والنَّبِىُّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، حَتَّى مَرَّ عَلَىَّ مُوسَى، عليه السلام، وَمَعَهُ كَبْكَبَةٌ مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ، فَأَعْجَبُونِى، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلاَءِ ؟ فَقِيلَ: هَذَا أَخُوكَ مُوسَى، مَعَهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ » [قال] : «فَقُلْتُ: فَأَيْنَ أُمَّتِى؟ فَقِيلَ: انْظُرْ عَنْ يَمِينِكَ. فَنَظَرْتُ فَإِذَا الظِّرَابُ قَدْ سُدَّ بِوُجُوه الرِّجَال ، [ثُمَّ قِيلَ لِى: انْظُرْ عَنْ يَسَارِكَ. فَنَظَرْتُ، فَإِذَا الأُفُقُ قَدْ سُدَّ بِوُجُوه الرِّجَال»] فَقِيلَ لِى: أَرضيتَ؟ فَقُلْتُ: «رَضِيتُ يَارَبِّ، [رَضِيتُ يَارَبِّ] ». قال: « فَقِيلَ لِى : إِنَّ مَعَ هَؤُلاَءِ سَبْعِينَ أَلْفاً يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ » . فقال النبى ﷺ : «فِدَاكُمْ أَبِى وأُمِّى، إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَكُونُوا مِنَ السَّبْعِينَ أَلْفاً فَافْعَلُوا ، فَإِنْ قَصَّرْتُمْ

---

(١) المسند (٦/ ٤٣٢ حلبى) . وهو من رواية « زوج درة بنت أبى لهب » عنها . ولم يذكر اسمه ، ولكن عرف أنه « دحية ابن خليفة الكلبى » كما يتبين من ترجمتها فى ابن سعد (٨/ ٣٤) والإصابة (٨ / ٧٦، ٧٧) وإسناد الحديث صحيح.

(٢) المسند (٢٤٦٣ ، ٢٩٢٨ ، ٢٩٨٩ ، ٣٣٣١) والحاكم (٢/ ٢٩٤) وصححه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى ، ونسبه الحافظ فى الفتح (٨/ ١٦٩) لعبد الرزاق وأحمد والنسائى والحاكم « بإسناد جيد » .

(٣) مضى عند تفسير الآية : ٤٧ من سورة البقرة .

(٤) حديث أبى سعيد ، ضمن حديث مطول فى المسند (١١٦٠٩) .

(٥) المسند (٧٦٣) . وحسنه أيضا الحافظ فى الفتح (٨ / ١٦٩) . وعندى أن إسناده صحيح .

فَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الظِّرَابِ، فَإِنْ قَصَّرتُمْ فَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الأُفُقِ ، فَإِنِّى قَدْ رَأَيْتُ ثَمَّ أُنَاسًا يَتَهَاوَشُونَ». فقام عُكّاشة بن مِحْصَن فقال: ادع الله ـ يا رسول الله ـ أن يجعلنى من السبعين ، فدعا له . فقام رجل آخر فقال: ادع الله ـ يا رسول الله ـ أن يجعلنى منهم فقال: «قَدْ سَبَقَكَ بِهَا عُكّاشَة ». قال: ثم تحدثنا فقلنا: من تُرَوْنَ هؤلاء السبعين الألف؟ قوم ولدُوا فى الإسلام لم يُشْرِكُوا بالله شيئا حتى ماتوا ؟ فبلغ ذلك النبىَّ ﷺ فقال: «هُمُ الَّذِينَ لاَ يَكْتَوُونَ وَلاَ يَسْتَرْقُونَ ،وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ». وإسناده صحيح، تفرد به أحمد ولم يخرجوه(١). وثبَتَ فى الصحيحين عن أبى هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِى زُمْرَةٌ وَهُمْ سَبْعُونَ أَلفاً، تُضِىءُ وُجُوهُهُمْ إضَاءَةَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ» . قال أبو هريرة : فقام عُكّاشة بن مِحْصَن الأسدى يرفع نَمِرَةً ، عليه فقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلنى منهم. فقال رسول الله ﷺ : « اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُم » . ثم قام رجل من الانصار فقال : [يا رسول الله، ادع الله أن يجعلنى منهم] فقال: «سَبَقَكَ بِهَا عكاشَةُ» (٢).

وروى مسلم عن حُصَيْن بن عبد الرحمن قال : كنت عند سعيد بن جبير فقال : أيُّكم رأى الكوكب الذى انقضَّ البارحةَ؟ قلتُ: أنا. ثم قُلتُ: أما إنى لم أكن في صلاة، ولكنى لُدغْتُ. قال: فما صنعتَ؟ قلتُ: استرقَيْتُ. قال: فما حملك على ذلك؟ قلتُ:حديث حدَّثَنَاه الشعبى. قال: وما حدثكم الشعبى؟ قلتُ: حَدَّثَنَا عن بُرَيْدَة (٣) بن الحُصَيب الأسلمى أنه قال: لا رُقْيَةَ إلاَّ مِنْ عَيْنٍ أو حُمَة. فقال: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن حدثنا ابنُ عباس عن النبى ﷺ قال: «عُرِضَتْ عَلَىَّ الأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِىَّ وَمَعَهُ الرَّهْط ، وَالنَّبِىَّ ومَعَهُ الرَّجُلُ والرَّجُلان والنَّبِىَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أحَدٌ ، إذْ رُفِعَ لِى سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِى ، فَقِيلَ لِى : هَـذَا مُوسَى وقَوْمُهُ، وَلَكِنِ انْظُرْ إلَى الأُفُقِ . [فنظرت] فَإذا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِى: انْظُرْ إلَى الأُفُقِ الآخَرِ، فَإذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِى: هَذِه أُمَّتُكَ ومعَهُم سَبْعُونَ ألفاً يَدْخُلُونَ الجنة بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَلا عَذَابٍ». ثم نهضَ فدخل منزله، فخاض النَّاس فى أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صَحبوا رسول الله ﷺ . وقال بعضهم: فلعلهم الذين وُلدُوا فى الإسلام فلم يُشْرِكوا بالله شيئا، وذكروا أشياء، فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: «مَا الَّذِى تَخُوضُونَ فيه؟» فأخبروه، فقال: «هُمُ الَّذِينَ لا يَرْقُونَ وَلا يَسْتَرْقُونَ وَلا يَتطيرونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ». فقام عكاشة بن محصن فقال: ادع الله أن يجعلنى منهم قال: «أَنْتَ مِنْهُمْ». ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلنى منهم. قال: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَاشَةُ». وأخرجه البخارى . وثبت فى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال: قال لنا رسول الله ﷺ : «أَمَا تَرْضَوْنَ أنْ تَكُونُوا رُبع أهلِ الْجَنَّةِ ؟ » فكبرنا . ثم قال : « أَمَا تَرْضَوْنَ أنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ ؟ »

---

(١) المسند (٢٨٠٦ ، ٣٩٨٧ ـ ٣٩٨٩ ، ٤٠٠٠) ورواه الحاكم (٤ /٥٧٧ ، ٥٧٨) وصححه ووافقه الذهبى . وهو فى مجمع الزوائد (١٠/ ٤٠٥ ، ٤٠٦) وقال : « وأحد أسانيد أحمد والبزار رجاله رجال الصحيح » . وأشار إليه الحافظ فى الفتح (١١/ ٣٥٢) عند أحمد والبزار « بسند صحيح » . وقد صححنا لفظ الحديث هنا من رواية المسند والمخطوطة الأزهرية . والزيادات من المسند . و« الكبكبة » بضم الكافين وفتحهما : الجماعة المتضامة من الناس . و« الظراب » ـ بكسر الظاء المعجمة وتخفيف الراء : الجبال الصغار .

(٢) المسند (٨٠٠٣) والبخارى (١٠/ ٢٣٤ ، ١١ /٣٥٨ ، ٣٥٩ فتح) ومسلم (١ /٧٨) .

(٣) فى المطبوع من « عمدة التفسير » : « بربدة » ببائين بينهما راء ، ولا شك أنه خطأ من الطابع . (الباز) .

(٤) مسلم (٢ /٧٨، ٧٩) . وزيادة [فنظرت] من صحيح مسلم . وفى المطبوعة هنا زيادة « ولا يكتوون » ، وليست فى مسلم ولا فى المخطوطة،ولكنها ثابتة فى المسند، والحديث فيه:(٢٤٤٨، ٢٤٤٩). وأشرنا هناك لمواضعه فى البخارى.

obeikandl.com

فكبرنا. ثم قال: «إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهلِ الْجَنَّة» (١). وروى عبد الرزاق عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «نَحْنُ الآخِرُونَ الأوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَة، نَحْنُ أَوَّلُ النَّاسِ دُخُولاً الْجَنَّةَ، بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، وأُوتيناهُ مِنْ بَعْدِهِمْ، فَهَدَانَا اللهُ لِمَا اخْتَلَفُوا فيه مِنَ الحقّ، فَهَذَا الْيَوْمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيه، النَّاسُ لَنَا فيه تَبَعٌ، غَداً لِلْيَهُودِ ، وللنصارى بَعْدَ غَد» رواه البخارى ومسلم مرفوعا بنحوه (٢).

فهذه الأحاديث فى معنى قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم فى هذا المدح ، ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله: ﴿كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩]. ولهذا لما مَدح الله تعالى هذه الأمة على هذه الصفات ، شرع فى ذم أهل الكتاب وتأنيبهم، فقال: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ أى: بما أنزل على محمد ﷺ ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أى: قليل منهم من يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم، وأكثرهم على الضلالة والكفر والفسق والعصيان.

ثم قال تعالى مخبراً عباده المؤمنين ومُبشِّراً لهم أن النصر والظَّفر لهم على أهل الكتاب الكفرة الملحدين، فقال: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ﴾. وهكذا وقع، فإنهم يوم خَيْبَر أذلّهم الله وأرْغَم آنافهم، وكذلك من قبلهم من يهود المدينة: بنى قَيْنُقَاع وبنى النَّضِير وبنى قُرَيْظَة، كلهم أذلهم الله، وكذلك النصارى بالشام كَسَرهم الصحابة فى غير ما موطن، وسَلَبوهم مُلْك الشام أبد الآبدين ودهر الداهرين، ولا تزال عِصَابة الإسلام قائمة بالشام حتى ينزل عيسى ابن مريم وهم كذلك، ويحكم بشرع محمد، عليه أفضل الصلاة والسلام، فيكْسر الصَّلِيب، ويقتل الخنزير، ويَضَع الجزْية، ولا يقبل إلا الإسلام.

ثم قال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ أى: ألزمهم الله الذلة والصَّغَار أينما كانوا فلا يأمنون ﴿إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أى: بذمة من الله، وهو عَقْد الذمة لهم وضَرْب الجزية عليهم، وإلزامهم أحكام الملة ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ أى: أمان منهم ولهم، كما فى المُهَادَن والمعاهَد والأسير إذا أمَّنه واحد من المسلمين. وقال ابن عباس: أى : بعهد من الله وعهد من الناس ، وهكذا قال مُجاهد، وعِكْرِمة ، وغيرهم.

وقوله: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أى: أُلزموا فالتزَمُوا بغضب من الله، وهم يستحقونه ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ أى: أُلزموها قَدَرًا وشَرْعًا. ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، أى: إنما حملهم على ذلك الكبْر والبَغْى والْحسَد، فأعْقَبَهم ذلك الذِّلّة والصَّغَار والمسكنة أبدا، متصلا بذلة الآخرة، ثم قال: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أى : إنما حَمَلهم على الكفر بآيات الله

---

(١) هو مختصر من حديث فى صحيح مسلم (١/ ٧٩) ، وبنحوه رواه أحمد (٣٦٦١ ، ٤١٦٦ ، ٤٢٥١) والبخارى (١١/ ٣٣٥، ٣٣٦ ، ٤٦٠) .

(٢) هو فى تفسير عبد الرزاق (ص ٢٣ ، ٢٤) ورواه أحمد (٧٦٩٣) عن عبد الرزاق . وليس فيه : « نحن أول الناس دخولا الجنة » . وهو فى مسلم (١/ ٢٣٤) بأسانيد وألفاظ متقاربة المعنى، وكذلك رواه أحمد مرارا ، منها : (٧٣٠٨، ٧٣٩٣ ، ٧٣٩٥) ، ٧٦٩٢ ، ٨١٠٠) ومضى من رواية أخرى عن عبد الرزاق (ص ٨٣) .

وقد ذكر الحافظ ابن كثير فى تفسير هذه الآية أحاديث كثيرة فى هذا المعنى ، وفيما أثبتنا منها كفاية والحمد لله .

obeikandl.com

وقَتْل رُسُل الله وقُيِّضوا لذلك ـ أنهم كانوا يكثرون العصيان لأوامر الله، والغشيان لمعاصى الله، والاعتداء فى شرع الله، فَعياذًا بالله من ذلك، والله المستعان.

ربع

﴿ ۞ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٦) مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧) ﴾

روى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال: أخر رسولُ الله ﷺ صلاة العشاء، ثم خرج إلى المسجد، فإذا الناس ينتظرون الصلاة، فقال: «أَمَا إنَّه لَيْسَ منْ أَهْلِ هَذه الأَدْيَان أحدٌ يَذْكُرُ الله هَذه السَّاعَةَ غَيْرَكُمْ». قال: فنزلت هذه الآيات: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ حتى بلغ: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ »(١).

والمشهور عند كثير من المفسرين ـ كما ذكره محمد بن إسحاق وغيره، ورواه العَوْفيّ عن ابن عباس: أن هذه الآيات نزلت فيمن آمَنَ من أحبار أهل الكتاب، كعبد الله بن سَلاَم وأسَد بن عُبَيْد وثعلبة بن سَعْية وغيرهم(٢)، أى: لا يستوى من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب وهؤلاء الذين أسلموا، ولهذا قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ أى: ليسوا كلُّهم على حَدّ سواء، بل منهم المؤمن ومنهم المُجْرم، ولهذا قال تعالى: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ أى: قائمة بأمر الله، مطيعة لشرع الله مُتَّبعة نبىَّ الله، ﴿قَائِمَةٌ﴾ بمعنى مستقيمة ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ أى: يقومون الليل، ويكثرون التهجد، ويتلون القرآن فى صلواتهم ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾. وهؤلاء هم المذكورون فى آخر السورة: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ

(١) المسند (٣٧٦٠) وإسناده صحيح. ورواه أيضًا الطبرى (٧٦٦١، ٧٦٦٢) وفى الزوائد (١/ ٣١٢) أنه رواه أيضًا أبو يعلى والبزار والطبرانى فى الكبير.

(٢) «سعية»: بفتح السين وسكون العين المهملتين بعدهما ياء تحتية ساكنة. ووقع فى المخطوطة والمطبوعة «شعبة»! وهو تصحيف، كما حققت ضبطه فى الأصمعيات، (ص ٨٠، ٨١).

و«سعية» ـ هذا ـ والد ثعلبة: هو «سعية بن الغريض بن عاديا»، شاعر يهودى لم يدرك الإسلام وهو أخو السموأل بن عاديا، الشاعر المشهور، وله ولد آخر أسلم أيضًا، وهو «أسد بن سعية» وقد أثبتناه فى شرح الأصمعيات «أسيد» بزيادة الياء، وهو خطأ، تبعنا فيه خطأ الذهبى فى المشتبه.

فائدة: تختلف عبارات الصحابة، وعبارات الرواة ـ فى أسباب نزول الآيات، ونجد أحاديث صحاحًا وروايات قوية، عن حوادث متعددة، ووقائع متباينة، يحكى كل منها سببًا لنزول آية معينة.

والرأى الراجح عندنا للجمع فى مثل هذه الحالات ـ وقد سبقنا إليه غيرنا من أهل العلم: أن يكون المراد أن الآية منطبقة على هذه الحادثة، داخلة الحادثة فى عموم لفظها ومعناها، دون تقييد ذلك بسبب معين، قد يكون حادثة أخرى، وفى بعض الأحيان تكون الآية قد تليت لمناسبة معينة يحضرها أحد الصحابة، فيظن أن هذه المناسبة هى سبب النزول، فيحكى ما شهد، دون ما لم يشهد، ولم يتصل به علمه من قبل، ويكون الجميع صحيحًا، والرواة صادقين. وهذا أحسن ما نرى فى ذلك، ولعله الصواب، إن شاء الله.

وما أُنزل إليْكُمْ ومَا أُنزِلَ إليْهِمْ خاشعِينَ للَّهِ لا يشتَرُون بآيات الله ثَمنًا قليلاً أُولَئك لهُمْ أجْرُهُمْ عند ربهِمْ إنَّ اللَّهَ سريعُ الحساب﴾ [الآية ١٩٩] وهكذا قال هاهنا: ﴿ومَا تفعلوا منْ خيْرٍ فلَن تكْفرُوهُ ﴾ أي: لا يضيع عند الله بل يجزيكم به أوفر الجزاء[١] ﴿ واللَّهُ عليمٌ بالْمُتقين﴾ أي: لا يخفى عليه عمل عامل، ولا يضيع لديه أجر من أحسن عملا.

ثم قال تعالى مخبراً عن الكفرة المشركين بأنه ﴿لن تُغْنيَ عنْهُمْ أمْوالُهُمْ ولا أوْلادُهُم مِّنَ اللَّه شيْئًا﴾ أي لا تردّ عنهم بأس الله ولا عذابه إذا أراده بهم ﴿وأُولَئكَ أصْحابُ النَّارِ هُمْ فيها خالدُون﴾.

ثم ضرب مثلا لما ينفقه الكفار في هذه الدار، فقال تعالى: ﴿مثَلُ ما يُنفقُونَ في هذه الْحياة الدُّنْيا كمثَلِ ريحٍ فيهَا صرٌّ﴾ أي: بَرْد شديد، قاله ابن عباس، وعكرِمة، وسعيد بن جُبَير وغيرهم. وعن ابن عباس أيضاً ومجاهد: أي: نار. وهو يرجع إلى الأول، فإن البرد الشديد سيّما الجليد يحرق الزروع والثمار، كما يحرق الشيء بالنار ﴿أصابتْ حرْثَ قوْمٍ ظلَمُوا أنفُسهُمْ فأهْلكتْهُ ﴾ أي: فأحرقته، يعنى بذلك السَّفْعة[٢] إذا نزلت على حَرْث قد آن جدادُه أو حَصَاده فدمَّرَتْه وأعدَمَتْ ما فيه من ثمر أو زرع، فذهبت به وأفسدته، فعَدِمَه صاحبه أحوج ما كان إليه. فكذلك الكفار: يمحق الله ثوابَ أعمالهم في هذه الدنيا وثمرتها كما أذهب ثمرةَ هذا الحرث بذنوب صاحبه. وكذلك هؤلاء بَنَوْهَا على غير أصْل وعلى غير أساس ﴿وما ظلَمهُمُ اللَّهُ ولَكنْ أنفُسهُمْ يظْلمُون﴾.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾

يقول تبارك وتعالى ناهياً عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانة، أي: يُطْلِعونهم على سرائرهم وما يضمرونه لأعدائهم، والمنافقون بجهدهم وبطانتهم لا يألون المؤمنين خَبَالا، أي: يَسْعَوْنَ في مخالفتهم وما يضرهم بكل ممكن، وبما يستطيعون من المكر والخديعة، ويودون ما يُعْنتُ المؤمنين ويحرجهم ويَشُقّ عليهم.

وقوله: ﴿لا تتَّخذُوا بطانةً مِّن دُونكُم﴾ أي: من غيركم من أهل الأديان، وبطانة الرجل: هم خاصة

(١) « يفعلوا » و« يكفروه » ـ قراءة حفص وحمزة والكسائي وخلف والأعمش ـ بياء الغائب فيهما. وقرأ باقي القراء الأربعة عشر « تفعلوا » و« تكفروه » ـ بتاء الخطاب. فأثبتناهما في الآيات بالياء، اتباعًا للثابت في المصحف الذى بأيدى الناس. وأثبتناهما هنا ـ أثناء التفسير ـ بتاء الخطاب، كما ثبت في المخطوطة، وبدلالة تفسير الحافظ ابن كثير بقوله « بل يجزيكم ». أما المطبوعة فإنها غيرتها إلى « يجزيهم »!

(٢) « السفعة » ـ بفتح السين وتقديم الفاء بعدها عين مهملة: من قولهم: « سفعته النار والشمس والسموم سفعا »: غيرت لون بشرته وسودته. و«السوافع»: لوافح السموم. وفى المطبوعة: « السعفة » بتقديم العين. وهو تصحيف، صوابه في المخطوطة.

أهله الذين يطلعون على داخل أمره . وقد روى البخارى، والنسائى، وغيرهما، عن أبى سعيد؛ أن رسول الله ﷺ قال: «مَا بَعَثَ اللهُ مِنْ نَبِى وَلاَ استَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ إلاَّ كَانَتْ لَهُ بِطَانَتَانِ: بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْخَيْرِ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالسُّوءِ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللهُ» ورواه النسائى عن أبى هريرة، مرفوعا ، بنحوه (١) . وروى ابن أبى حاتم : قيل لعمر بن الخطاب: إن هاهنا غُلاما من أهل الحيرة، حافظ كاتب، فلو اتخذته كاتبا؟ قال: قد اتخذت إذاً بطانة من دون المؤمنين. ففى هذا الأثر مع هذه الآية دليل على أن أهل الذِّمَّة لا يجوز استعمالهم فى الكتابة، التى فيها استطالة على المسلمين واطِّلاع على دَوَاخل أمُورهم التى يُخْشَى أن يُفْشوها إلى الأعداء من أهل الحرب(٢) ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾.

وروى أبو يعلى عن الأزهر بن راشد قال: كانوا يأتون أنَساً، فإذا حَدَّثهم بحديث لا يدرون ما هو، أتَوُا الحسن ـ يعنى البصرى ـ فيفسره لهم. قال: فحدَّث ذاتَ يوم عن النبى ﷺ أنه قال: «لاَ تَسْتَضِيؤوا بِنَارِ الْمُشْرِكِينَ ، ولاَ تَنْقُشُوا فِى خَوَاتِيمِكُمْ عَرَبِيا » . فلم يدروا ما هو ؟ فأتوا الحسن فقالوا له: إن أنسا حدثنا أن رسول الله ﷺ قال: «لاَ تَسْتَضِيؤوا بِنَارِ المشركين ولاَ تَنْقُشُوا فِى خَوَاتِيمِكُمْ عَرَبِيا ؟». فقال الحسن: أما قوله: «لاَ تَنْقُشُوا فِى خَوَاتِيمِكُمْ عَرَبِيا »: محمد ﷺ . وأما قوله: «لاَ تَسْتَضِيؤوا بِنَارِ المشركين» يقول: لا تستشيروا المشركين فى أموركم. ثم قال الحسن: تصديق ذلك فى كتاب الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾. هكذا رواه أبو يعلى، وقد رواه أحمد والنسائى مثله، من غير ذكر تفسير الحسن البصرى (٣) .

وهذا التفسير فيه نظر، ومعناه ظاهر: «لاَ تَنْقُشُوا فِى خَوَاتِيمِكُمْ عَرَبِيًا » أى: بخط عربى، لئلا يشابه نقش خاتم النبى ﷺ ، فإنه كان نَقْشُه : « محمد رسول الله »؛ ولهذا جاء فى الحديث الصحيح أنه نهى أن يَنْقُشَ أحد على نقشه. وأما الاستضاءة بنار المشركين، فمعناه: لا تقاربوهم فى المنازل بحيث تكونون معهم فى بلادهم، بل تَبَاعَدُوا منهم وهَاجروا من بلادهم ، فحَمْلُ الحديث على ما قاله الحسن، رحمه الله، والاستشهاد عليه بالآية ـ فيه نظر، والله أعلم.

ثم قال : ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ أى: قد لاح على صفَحَات وجوههم، وفلتات ألسنتهم من العداوة، مع ما هم مشتملون عليه فى صدورهم من البغضاء للإسلام وأهله، ما لا يخفى مثله على لبيب عاقل؛ ولهذا قال: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ . هَا أَنتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ﴾ أى : أنتم ـ أيها المؤمنون ـ تحبون المنافقين بما يظهرون لكم من الإيمان، فتحبونهم على ذلك وهم لا يحبونكم ، لا باطنا ولا ظاهرا ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ أى: ليس عندكم فى شىء منه شك ولا رَيْب، وهم عندهم الشك والرِّيب والحيرة . وعن ابن عباس : ﴿ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ﴾ أى : بكتابكم وكتابهم،

(١) حديث أبى سعيد فى البخارى (١٣/ ١٦٤ ، ١٦٥فتح) ، ورواه أيضًا أحمد فى المسند (١١٣٦٢ ، ١١٨٥٧) . وحديث أبى هريرة فى المسند (٧٢٣٨ ، ٧٨٧٤) وذكره البخارى معلقا عقب حديث أبى سعيد . وفى رواية أبى هريرة زيادة : « وهو مع التى تغلب عليه منهما » .

(٢) وقد ابتلى المسلمون بهذا بلاء شديدا وشاع فيهم ، ورأوا من خطره ما فيه عبرة لمن يعتبر . وأنى هذا ؟

(٣) ورواه الطبرى أيضا مع تفسير الحسن : (٧٦٨٥) . وأما رواية الإمام أحمد فإنها فى المسند (١١٩٧٨) . ورواه البخارى أيضا فى الكبير (١/ ١/ ٤٥٥) دون كلام الحسن . وفسر قوله : « عربيا » وقال : « يقول : لا تكتبوا مثل خاتم النبى : « محمد رسول الله » .

وبما مضى من الكتب قبل ذلك، وهم يكفرون بكتابكم، فأنتم أحق بالبغضاء لهم، منهم لكم. رواه ابن جرير. ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ والأنامل: أطراف الأصابع، وقيل: هى الأصابع.

وهذا شأن المنافقين يُظْهِرون للمؤمنين الإيمانَ والمودّة، وهم فى الباطن بخلاف ذلك من كل وجه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ وذلك أشد الغيظ والحنق، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أى: مهما كنتم تحسدون عليه المؤمنين ويغيظكم ذلك منهم، فاعلموا أن الله مُتمّ نعمته على عباده المؤمنين ومُكمِلٌ دينَه، ومُعلٍ كلمتَه ومظهر دينَه، فموتوا أنتم بغيظكم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أى: هو عليم بما تنطوى عليه ضمائركم، وتُكِنُّه سَرَائرُكُم من البغضاء والحسد والغل للمؤمنين، وهو مجازيكم عليه فى الدنيا بأن يريكم خلاف ما تؤمّلون، وفى الآخرة بالعذاب الشديد فى النار التى أنتم خالدون فيها، فلا خروج لكم منها.

ثم قال: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾. وهذه الحال دالّ على شدة العداوة منهم للمؤمنين وهو أنه إذا أصاب المؤمنين خصْبٌ، ونصر وتأييد، وكثروا وعزّ أنصارهم، ساء ذلك المنافقين، وإن أصاب المسلمين سَنَة ـ أى: جَدْب ـ أو أُديل عليهم الأعداء، لما لله تعالى فى ذلك من الحكمة، كما جرى يوم أُحُد، فَرِح المنافقون بذلك، قال الله تعالى مخاطبا عباده المؤمنين: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾، يرشدهم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار وكَيْد الفُجّار، باستعمال الصبر والتقوى، والتوكل على الله الذى هو محيط بأعدائهم، فلا حول ولا قوة لهم إلا به، وهو الذى ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن. ولا يقع شىء فى الوجود إلا بتقديره ومشيئته، ومن توكل عليه كفاه.

ثم شَرَعَ تعالى فى ذكر قصة أُحُد، وما كان فيها من الاختبار لعباده المؤمنين، والتمييز بين المؤمنين والمنافقين، وبيان صَبْر الصابرين، فقال تعالى:

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

المرادُ بهذه الواقعة يوم أُحُد عند الجمهور، قاله ابن عباس، والحسن، وقتادة، والسُّدِّى، وغير واحد. وعن الحسن البصرى: المراد بذلك يوم الأحزاب!. رواه ابن جرير، وهو غريب لا يُعَوَّل عليه. وكانت وقعةُ أحد يومَ السبت من شوال سنة ثلاث من الهجرة [١]. وكان سببها أن المشركين حين قُتل من قتل من أشرافهم يومَ بَدْر، وسَلِمَت العيرُ بما فيها من التجارة التى كانت مع أبى سُفْيان، [فلما رجع قَفْلُهُم [٢]] قال أبناء من قُتل، ورؤساء من بقى لأبى سفيان: أرصد هذه الأموال لقتال محمد،

---

(١) نقل الحافظ قولين: أنها كانت فى ١١ شوال، والآخر: فى النصف من شوال. والثابت فى كتاب التوفيقات الإلهامية أن أول شوال سنة ٣ ـ كان يوم أحد. فيكون يوم السبت هو يوم ١٤ منه.
وانظر تفصيل الأخبار عن غزوة أحد فى (البداية والنهاية لابن كثير ٤ / ٩ ـ ٦١).

(٢) الزيادة من المخطوطة الأزهرية. و« القفل » ـ بالقاف والفاء المفتوحتين: اسم جمع للقافل، من القفول، وهو الرجوع من الغزو.

فاستعدوا في ذلك،وجمعوا الجموع والأحابيش وأقبلوا فى قريب من ثلاثة آلاف، حتى نزلوا قريباً من أحد تلقاء المدينة، فصلى رسولُ الله ﷺ يومَ الجمعة، فلما فَرَغَ منها صلّى على رجل من بنى النجار،يقال له:مالك بن عَمْرو،واستشار الناس:أيخرج إليهم أم يمكث بالمدينة؟ فأشار عبد الله بن أُبيّ بالمقام بالمدينة،فإن أقاموا أقاموا بشرِّ مَحْبس،وإن دخلوها قاتلهم الرجال فى وجوههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم،وإن رجعوا رجعوا خائبين . وأشار آخرون من الصحابة ـ ممن لم يشهد بدرا ـ بالخروج إليهم، فدخل رسول الله ﷺ فلبس لأمَتَه وخرج عليهم،وقد نَدم بعضهم وقالوا:لعلنا استكرهْنَا رسولَ الله ﷺ ، فقالوا:يا رسول الله، إن شئت أن نمكث؟ فقال رسول الله ﷺ : «مَا يَنْبغى لنَبىٍّ إذَا لَبسَ لأمتَه أنْ يَرْجعَ حَتى يَحْكُمَ اللهُ لَه». فسار، عليه السلام ، فى ألف من أصحابه، فلما كانوا بالشَّوط (١) رجع عبد الله بن أبىّ بثُلُث الجيش مُغْضبا؛ لكونه لم يرجع إلى قوله، وقال هو وأصحابه: لو نعلم اليوم قتالاً لاتبعناكم، ولكنا لا نراكم تقاتلون اليوم.واستمر رسول الله ﷺ سائرا حتى نزل الشِّعْب من أُحُد فى عَدْوَة الوادى. وجعل ظهره وعسكره إلى أحد وقال:«لاَ يُقَاتلَنَّ أحَدٌ حتى نَأمُرَهُ بالْقتَال».وتهيأ رسول الله ﷺ للقتال وهو فى سبعمائة من أصحابه ، وأمّر على الرماة عبد الله ابن جُبَيْر أخا بنى عَمْرو بن عوف، والرماة يومئذ خمسون رجلا، فقال لهم: «انْضَحُوا الْخَيْلَ عَنَّا، وَلاَ نُؤْتَيَنَّ منْ قَبلكُمْ. والْزَمُوا مَكَانَكُمْ إنْ كَانَت النَّوْبَةُ لَنَا أوْ عَلَيْنَا، وإنْ رَأيْتُمُونَا تَخَطَّفُنا الطَّيْرُ فَلاَ تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ». وظاهر رسولُ الله ﷺ بين درعين، وأعطى اللواء مُصْعَب بن عُمَير أخا بنى عبد الدار. وأجاز رسول الله ﷺ بعض الغلْمان يومئذ وأرجأ آخرين، حتى أمضاهم يوم الخندق بعد هذا اليوم بقريب من سنتين. وتهيأت قريش وهم ثلاثة آلاف، ومعهم مائة فَرَس قد جَنّبوها ، فجعلوا على مَيْمَنة الخيل خالد بن الوليد: وعلى الميسرة عكْرِمَة بن أبى جَهْل، ودفعوا إلى بنى عبد الدار اللواء. ثم كان بين الفريقين ما سيأتى تفصيله فى مواضعه [عند هذه الآيات] إن شاء الله تعالى.

ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإذْ غَدَوْتَ منْ أَهْلكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمنينَ مَقَاعدَ للْقتَال ﴾ أى : تنزلهم منازل وتجعلهم مَيْمَنة ومَيْسَرة وحيث أمرتهم ﴿ وَاللَّهُ سَميعٌ عَليمٌ ﴾ أى:سميع لما تقولون ، عليم بضمائركم.

وقد أورد ابن جرير هاهنا سؤالا، حاصله: كيف يقولونَ: إن النبى ﷺ خرج إلى أحد يوم الجمعة بعد الصلاة، وقد قال الله : ﴿وَإذْ غَدَوْتَ منْ أَهْلكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمنينَ مَقَاعدَ للْقتَال﴾؟ ثم كان جوابه عنه: أن غدوه ليبوئهم مقاعد، إنما كان يوم السبت أول النهار.

وقوله: ﴿ إذْ هَمَّت طَّائفَتَان منكُمْ أَن تَفْشَلا وَاللَّهُ وَليُّهُمَا وَعَلَى اللَّه فَلْيَتَوَكَّل الْمُؤْمنُونَ ﴾، روى البخارى عن جابر بن عبد الله قال: فينا نزلت: ﴿ إذْ هَمَّت طَّائفَتَان منكُمْ أَن تَفْشَلا وَاللَّهُ وَليُّهُمَا وَعَلَى اللَّه فَلْيَتَوَكَّل الْمُؤْمنُونَ ﴾ قال: نحن الطائفتان بنو حارثة وبنو سَلمَة، وما نحب أنها لم تَنْزلْ، لقول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَليُّهُمَا ﴾. رواه مسلم (٢). وكذا قال غيرُ واحد منَ السَّلَف: إنهم بنو حارثة وبنو سلمةَ.

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ ببَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أى: يوم بدر، وكان فى يوم جمعة، وافق السابع عشر من شهر رمضان، من سنة اثنتين من الهجرة، وهو يوم الفرقان الذى أعز الله فيه الإسلام وأهله، ودمغَ فيه الشرك وخرّب محله، مع قلة عدد المسلمين يومئذ، فإنهم كانوا ثلاثمائة

(١) « الشوط » ـ بفتح الشين وسكون الواو : بستان بين المدينة وأحد .

(٢) « بنو سلمة » بفتح السين وكسر اللام . وليس فى العرب غيرهم بكسر اللام . وسائر الأسماء بفتح اللام .

وثلاثة عشر رجلا، فيهم فرسان وسبعون بَعيرا، والباقون مُشاة، ليس معهم من العُدَد جميع ما يحتاجون إليه، وكان العدو يومئذ ما بين التسعمائة إلى الألف فى سوابغ الحديد والبَيض، والعدة الكاملة والخيول المسومة والحلى الزائد، فأعز الله رسوله، وأظهر وحيه وتنزيله، وبيَّضَ وَجْه النبى وقبيله، وأخْزى الشيطان وجيله. ولهذا قال تعالى ـ مُمْتَنا على عباده المؤمنين وحزبه المتقين: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ أى: قليل عددكم ليعلموا أن النصر إنما هو من عند الله، لا بكثرة العَدَد والعُدَد؛ ولهذا قال فى الآية الأخرى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ . ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ . ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٥ ـ ٢٧].

وروى الإمام أحمد عن عياض الأشعرى قال: شهدتُ اليَرْمُوك وعلينا خمسة أمراء: أبو عبيدة، ويزيد بن أبى سفيان، وابن حَسَنَة، وخالد بن الوليد، وعياض. وقال عمر: إذا كان قتال فعليكم أبو عبيدة. قال: فكتبنا إليه: إنه قد جاش إلينا الموت، واستمددناه، فكتب إلينا: إنه قد جاءنى كتابكم تَستَمِدُّونَنى، وإنى أدلكم على من هو أعز نصراً، وأحصن جنداً: الله عز وجل، فاستنصروه، فإن محمداً ﷺ قد نُصر يومَ بدر فى أقل من عدتكم، فإذا جاءكم كتابى فقاتلوهم ولا تراجعونى. قال: فقاتلناهم فهزمناهم أربعَة فراسخ، قال: وأصبنا أموالا، فتشاورنا، فأشار علينا عياض أنْ نُعْطِىَ عن كل ذى رأس عشرة. قال: وقال أبو عبيدة: من يراهنّى؟ فقال شاب: أنا، إن لم تَغْضَبْ. قال: فسبقه، فرأيت عَقِيصَتَىْ أبى عُبَيدة تَنْقُزان وهو خَلْفه على فرس عُرْى إسناده صحيح. وقد أخرجه ابن حبّان فى صحيحه بنحوه، واختاره الحافظ الضياء المقدسى فى كتابه[1]. وبَدْر مَحَلّة بين مكة والمدينة، تُعرف ببئرها، منسوبة إلى رجل حفرها يقال له: «بدر بن النارين». قال الشعبى: بدر بئر لرجل يسمى بدراً.

وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أى: تقومون بطاعته.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾

اختلف المفسرون فى الوعد: هل كان يوم بَدْر أو يوم أُحُد؟ على قولين:

أحدهما: أن قوله: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلق بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾. رُوى هذا عن الحسن البصرى، والشعبى، وغيرهما. واختاره ابن جرير.

---

(١) المسند (٣٤٤). و« عياض » أحد الأمراء الخمسة : هو عياض بن غنم الفهرى . وهو غير « عياض الأشعرى » التابعى راوى الحديث وقوله : « جاش إلينا الموت » : أى تدفق وفاض . وقوله : « يراهنى » بتشديد النون : أصلها « يراهننى » .

فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية ـ على هذا القول ـ وبين قوله فى قصة بدر: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ . وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[الأنفال:٩، ١٠]؟ فالجواب:أن التنصيص على الألف هاهنا لا ينافى الثلاثة الآلاف فما فوقها، لقوله: ﴿مُرْدِفِينَ﴾، بمعنى يَرْدَفُهم غيرهُم ويَتْبَعهم ألوف أخر مثلهم[1]. وهذا السياق شبيه بهذا السياق فى سورة آل عمران. فالظاهر أن ذلك كان يوم بدر كما هو المعروف من أن قتال الملائكة إنما كان يوم بدر ، والله أعلم .

القول الثانى : أن هذا الوعد متَعَلق بقوله: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾، وذلك يوم أحُد. وهو قول مجاهد، وعِكْرِمة، والزهرى، وموسى بن عُقبة وغيرهم. لكن قالوا: لم يحصل الإمداد بالخمسة الآلاف؛ لأن المسلمين فرّوا يومئذ ـ زاد عكرمة: ولا بالثلاثة الآلاف؛ لقوله: ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾، فلم يصبروا، بل فروا، فلم يمدوا بملَك واحد.

وقوله: ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾، يعنى: تصبروا على مُصَابرة عَدُوّكم وتتقونى وتطيعوا أمرى. وقوله: ﴿وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾، قال الحسن، وقتادة، والرَّبيع، والسُّدِّى: أى من وجههم هذا. وقال مجاهد، وعكرمة : أى من غضبهم هذا. وقوله: ﴿ يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ أى: معلمين بالسِّيما. وروى ابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب قال: كان سِيما الملائكة يوم بدر الصوف الأبيض، وكان سيماهم أيضا فى نواصى خَيْلِهم.

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾ أى: وما أنزل الله الملائكة وأعلمكم بإنزالها إلا بشارةً لكم وتطييبا لقلوبكم وتطمينا، وإلا فإنما النصر من عند الله، الذى لو شاء لانتصر من أعدائه بدونكم، ومن غير احتياج إلى قتالكم لهم، كما قال تعالى بعد أمره المؤمنين بالقتال: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ . سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ . وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٤ ـ ٦]. ولهذا قال هاهنا ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ أى: هو ذو العزة التى لا تُرام، والحكمة فى قَدره والإحكام.

ثم قال تعالى: ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ أى: يخزيهم ويردهم بغيظهم لم ينالوا منكم ما أرادوا؛ ولهذا قال: ﴿ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا﴾ أى : يرجعوا ﴿خَائِبِينَ﴾ أى: لم يحصلوا على ما أمَّلُوا.

ثم اعترض بجملة دلَّت على أنّ الحُكْم فى الدنيا والآخرة له وحده لا شريك له ، فقال: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أى: بل الأمر كلّه إلى، كما قال: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠] وقال: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]. وقال: ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

ثم ذكر تعالى بقية الأقسام فقال: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أى: مِمَّا هم فيه من الكفر فيهديهم بعد الضلالة ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة على كفرهم وذنوبهم؛ولهذا قال: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ أى: يستحقون ذلك.

---

(١) (مردفين) : قرأها نافع وأبو جعفر ويعقوب ـ بفتح الدال : اسم مفعول ، أى : مردفين بغيرهم . وقرأها باقى الأربعة عشر بكسر الدال : اسم فاعل ، أى مردفين مثلهم . وتفسير ابن كثير إياها هنا على معنى فتح الدال .

وروى الإمام أحمد عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم العن فلانا، اللهم العن الحارث بن هشام، اللهم العن سُهَيلَ بنَ عَمْرو، اللهم العن صَفْوانَ بْنَ أُمَيَّةَ». فنزلت هذه الآية: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾، فَتِيبَ عليهم كلّهم(١). وروى البخارى عن أبى هريرة، أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يَدْعُو على أحد ـ أو يدعو لأحد ـ قَنَتَ بعد الركوع، وربما قال ـ إذا قال: «سمع الله لمن حمده، ربنا لك الحمد ـ: «اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيد بن الوليد، وسَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ، وعَيَّاشَ بْنَ أَبِى رَبِيعَةَ، وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ على مُضَر، وَاجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِى يُوسُفَ». يجهر بذلك، وكان يقول ـ فى بعض صلاته فى صلاة الفجر ـ :«اللهم العن فلانا وفلانا» لأحياء من أحياء العرب، حتى أنزل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ الآية(٢). وروى الإمام أحمد: عن أنس، أن النبى ﷺ كُسرَتْ رَبَاعيَتُه يومَ أُحُد، وشُجَّ فى [جبهته] (٣) حتى سال الدم على وجهه، فقال: « كَيفَ يُفلحُ قَوْمٌ فَعَلُوا هَذَا بِنَبِيِّهِمْ، وهو يدعوهم إلى الله عز وجل ». فأنزل الله تعالى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾. انفرد به مسلم (٤).

ثم قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ أى: الجميع ملك له، وأهلهما عبيد بين يديه ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ أى : هو المتصرف فلا مُعَقِّب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

ربع

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن تعاطى الربا وأكله أضعافا مضاعفة، كما كانوا فى الجاهلية يقولون ـ إذا حَلّ أجل الدين: إما أن تَقْضى وإمّا أن تُرْبى، فإن قضاه وإلا زاده فى المدة وزاده الآخرَ فى

(١) المسند (٥٦٧٤). وهو حديث صحيح . ورواه أحمد مرارًا من أوجه عن ابن عمر ـ وفى بعض رواياته أن ذلك كان بعد الرفع من الركوع فى الركعة الثانية من صلاة الفجر . ورواه البخارى من طرق عن ابن عمر . وذكر الحافظ ابن كثير هنا بعض رواياته من المسند والبخارى وانظر المسند (٥٨١٢، ٦٣٤٩، ٦٣٥٠) والفتح (٧ / ٢٨١ ، ١٣/ ٢٦٣ ، ٢٦٤).

(٢) البخارى (٨/ ١٧٠ ، ١٧١ فتح) . ورواه أحمد فى المسند مرارًا ، مطولا ومختصرًا ، منها (٧٢٥٩ ، ٧٤٥٨) ورواه مسلم (١/ ١٨٧) .

(٣) فى المطبوع من « عمدة التفسير » وكذا المخطوطة الأزهرية « وجهه » ، وما أثبتناه من المسند (٣/ ٩٩) ، وعند مسلم (١٧٩١) : « رأسه » . (الباز) .

(٤) المسند (١١٩٨٠) ومسلم (٢/ ٦٧) ورواه الطبرى (٧٨٠٥ ـ ٧٨٠٨) . وتفصيل تخريجه فيه . و« الرباعية » ـ بوزن «ثمانية» : الأسنان الأربعة التى تلى الثنايا . وقد جمع الحافظ ابن حجر فى الفتح (٨/ ١٧١) بين هذا الحديث وحديث ابن عمر بأنه ﷺ دعا على المذكورين بعد ذلك فى صلاته ، فنزلت الآية فى الأمرين معا . وذلك كله فى أحد .

القَدْر، وهكذا كلّ عام، فربما تضاعف القليل حتى يصير كثيراً مضاعفا [١].

وأمر تعالى عباده بالتقوى لعلهم يفلحون فى الأولى والأخرى، ثم توعدهم بالنار وحذرهم منها، فقال: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ . وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ .

ثم نَدَبهم إلى المبادرة إلى فعْل الخيرات والمسارعة إلى نَيْل القُرُبات، فقال: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أى: كما أعدّت النار للكافرين. وقد قيل: إن معنى قوله: ﴿ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ ﴾: تنبيها على اتساع طولها، كما قال فى صفة فرش الجنة: ﴿بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن: ٥٤] أى: فما ظنك بالظهائر؟ وقيل: بل عرضها كطولها؛ لأنها قبة تحت العرش، والشيء المُقبَّب والمستدير عَرْضُه كطوله. وقد دل على ذلك ما ثبت فى الصحيح: «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أعْلَى الجنة وَأَوْسَطُ الْجَنَّة، ومنه تَفَجَّرُ أنهار الجنة، وَسَقْفُهَا عَرْشُ الرَّحْمنِ»[٢]. وهذه الآية كقوله تعالى فى سورة الحديد: ﴿وَسَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ الآية [رقم ٢١].

وقد روينا فى مسند الإمام أحمد: أنّ هِرَقْل كَتَبَ إلى النبى ﷺ: إنك دَعَوْتنى إلى جنة عَرْضُها السموات والأرض، فأين النار؟ فقال النبى ﷺ: «سُبْحَانَ اللهِ! فأين الليل إذَا جَاءَ النَّهَارُ؟!». وقد رواه ابنُ جرير [٣]. وروى الطبرى عن يزيد بن الأصم: أن رجلا من أهل الكتاب قال: يقولون: ﴿جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ ﴾، فأين النار؟ فقال ابن عباس: أين يكون الليل إذا جاء النهار؟، وأين يكون النهار إذا جاء الليل؟ وقد رُوى هذا مرفوعا، فروى البَزّار عن أبى هريرة قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أرأيت قوله تعالى: ﴿جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ فأين النار؟ قال: «أَرَأَيْتَ اللَّيْلَ إذا جَاءَ لَبِس كُلَّ شَيْءٍ، فَأَيْنَ النَّهَار؟» قال: حيث شاء الله. قال: «وَكَذَلِكَ النَّارُ حيث شاء الله عز وجل»[٤]. وهذا يحتمل معنيين:

أحدهما: أن يكون المعنى فى ذلك : أنه لا يلزم من عدم مشاهدتنا الليل إذا جاء النهار ألاَّ يكون فى مكان ، وإن كنا لا نعلمه ، وكذلك النار تكون حيث يشاء الله عز وجل ، وهذا أظهر كما تقدم فى

---

(١) والمتلاعبون بالدين من أهل عصرنا ، وأولياؤهم من عابدى التشريع الوثنى الأجنبى ـ بل التشريع اليهودى فى الربا ـ يلعبون بالقرآن ، ويزعمون أن هذه الآية تدل على أن الربا المحرم هو « الأضعاف المضاعفة » ! ليجيزوا ما بقى من أنواع الربا ، على ما ترضاه أهواؤهم وأهـــواء سادتهم ، ويتركـــوا الآية الصريحة : ﴿ وإن تُبْتُمْ فلكُمْ رُءُوسُ أمْوَالِكُمْ لا تظلِمُون ولا تُظْلَمُون ﴾ [البقرة : ٢٧٩] ـ انظر ما مضى عند تفسير الآية (٢٧٥) من سورة البقرة . فكانوا فى تلاعبهم بتأول هذه الآيات الصريحة أسوأ حالا ممن ﴿ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ [آل عمران : ٧] ـ «فأولئك الذين سمى الله، فاحذروهم ».

(٢) البخارى (٦ / ٩ ، ١٠ ، ١٣/ ٣٤٩ ، ٣٥٠ فتح) ، عن أبى هريرة ، مع اختلاف قليل فى اللفظ . وهو مما انفرد به البخارى عن مسلم ، كما نص على ذلك الحافظ (٦ / ١٣٥) .

(٣) هو جزء من حديث طويل ، عن التنوخى رسول هرقل ، فى المسند (١٥٧١٩) . ونقله الحافظ ابن كثير فى التاريخ (٥/ ١٥، ١٦)، عن رواية المسند ، كاملا . ثم قال : « هذا حديث غريب ، وإسناده لا بأس به . تفرد به أحمد ». ورواية الطبرى مختصرة (٧٨٣١) .

(٤) حديث ابن عباس ـ الموقوف ـ رواه عنه ابن خالته « يزيد بن الأصم بن عبيد » التابعى الثقة . وهو فى الطبرى (٧٨٣٦) وإسناده صحيح . وحديث أبى هريرة ـ المرفوع ـ رواه عنه « يزيد بن الأصم » أيضًا . وإسناد البزار صحيح . وذكره الهيثمى فى الزوائد (٦ / ٣٢٧) ، وقال : « رواه البزار ، ورجاله رجال الصحيح » ورواه أيضا بنحوه ابن حبان فى صحيحه (١٠٣ بتحقيقنا) . ورواه الحاكم (١/ ٣٦) وصححه على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى .

obeikandi.com

حديث أبى هريرة.

الثانى: أن يكون المعنى: أن النهار إذا تغشى وجه العالم من هذا الجانب، فإن الليل يكون من الجانب الآخر(١) ، فكذلك الجنة فى أعلى عليّين فوق السموات تحت العرش، وعرضها كما قال الله، عز وجل: ﴿كَعرض السَّمَاء وَالأَرْضُ﴾ [الحديد:٢١] ،والنار فى أسفل سافلين. فلا تنافى بين كونها كعرض السماء والأرض، وبين وجود النار، والله أعلم.

ثم ذكر تعالى صفَةَ أهل الجنة، فقال: ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ أى: فى الشدة والرخاء، والمَنْشَط والمَكْرَه، والصحة والمرض، وفى جميع الأحوال، كما قال: ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً﴾ [البقرة: ٢٧٤]. والمعنى: أنهم لا يشغلهم أمْر عن طاعة الله تعالى والإنفاق فى مَرَاضِيه، والإحسان إلى خلقه من قراباتهم وغيرهم بأنواع البر.

وقوله: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ أى: إذا ثار بهم الغيظ كظموه، بمعنى: كتموه فلم يعملوه، وعفوا مع ذلك عمن أساء إليه. وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، قال: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بالصُّرُعة، وَلَكِنَّ الشَّدِيد الَّذِى يَمْلكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَب». وقد رواه الشيخان (٢). وروى الإمام أحمد ـ فى حديث ـ عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا تَعُدُّونَ فيكُمُ الصُّرَعَة؟» قلنا: الذى لا تَصْرَعه الرجال، قال: قال: «لا، ولكن الذى يَمْلكُ نَفْسَهُ عند الْغَضَب» (٣). وروى الإمام أحمد عن جَارية بن قُدامة السعدى؛ أنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، قل لى قولا ينفعنى وأقْلِلْ علىّ، لعلى أعيه. فقال رسول الله ﷺ: «لاَ تَغْضَبْ». فأعاد عليه حتى أعاد عليه مرارا، كل ذلك يقول: «لاَ تَغْضَبْ» انفرد به أحمد (٤). وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسرًا أو وَضَعَ لَهُ وَقَاهُ اللهُ مِنْ فَيْح جَهَنَّمَ، أَلاَ إنَّ عَمَلَ الْجَنَّة حَزْنٌ بِرَبْوَة ـ ثلاثا ـ أَلاَ إنَّ عَمَلَ النَّار سَهْلٌ بشَهْوة والسَّعيدُ مَنْ وقِىَ الفتَنَ، ومَا مِنْ جَرْعَة أَحَبُّ إلَى الله مِنْ جَرْعَة غَيْظ يَكْظِمُهَا عَبْدٌ، مَا كَظَمَهَا عَبْدٌ لله إلاَّ مَلأَ الله جَوْفَهُ إيمَانًا». انفرد به أحمد، وإسناده حسن ليس فيه مجروح، ومتنه حسن(٥). وروى ابن مَرْدُوَيه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تَجَرَّعَ عبد من جُرْعَة أفضل أجرا من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله» ورواه ابن جرير وابن ماجه (٦).

فقوله: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ أى: لا يعملون غضبهم فى الناس، بل يكفون عنهم شرهم، ويحتسبون ذلك عند الله عز وجل.

---

(١) هذا أحد الدلائل على أن كروية الأرض كانت معروفة لعلماء الإسلام، قبل أن تخطر ببال الإفرنج ومن يشايعهم. ليخزى الله المستهترين بالطعن فى علوم الإسلام وعلمائه. جهلا منهم وتقليدًا.

(٢) المسند (٧٢١٨) والبخارى (١٠/ ٤٣١ فتح) ومسلم (٢ / ٢٨٩ ، ٢٩٠). و« الصرعة » ـ بضم الصاد وفتح الراء: البالغ فى الصراع، الذى لا يغلب فيه.

(٣) من حديث مطول فى المسند (٣٦٢٦) ساقه الحافظ ابن كثير كاملا. واقتصرنا على موضع الشاهد منه. والبخارى روى قطعة من أوله. ومسلم روى باقيه (٢/ ٢٨٩). ورواه البخارى كاملا فى الأدب المفرد، رقم (١٥٣ ـ ١٥٥).

(٤) المسند (٥/ ٣٤ حلبى). و« جارية » بالجيم والياء. وفى المطبوعة: « حارثة » وهو تصحيف. وأشار ابن حجر فى الإصابة فى ترجمته إلى أن الحديث رواه ابن حبان فى صحيحه.

(٥) المسند (٣٠١٧).

(٦) هو حديث صحيح. ورواه أحمد فى المسند (٦١١٤ ، ٦١١٦). والعجب من الحافظ ابن كثير أن لا ينسبه للمسند !

ثم قال : ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ أى: مع كف الشر يعفون عمن ظلمهم فى أنفسهم، فلا يبقى فى أنفسهم مَوجدة على أحد، وهذا أكمل الأحوال ، ولهذا قال : ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾. فهذا من مقامات الإحسان. وفى الحديث: «ثلاث أُقْسِمُ عليهن: ما نقص مال من صدقة، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا، ومن تواضع لله رفعه الله» (١).

وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾ أى :إذا صدر منهم ذنب أتبعوه بالتوبة والاستغفار.

روى الإمام أحمد عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «إن رجلا أذنب ذَنْبًا، فقال: رب ، إنى أذنبت ذنبا فاغفره. فقال الله: عبدى عمل ذنبا، فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدى، ثم عمل ذنبا آخر فقال:رب،إنى عملت ذنبا فاغفره. فقال تبارك وتعالى:علم عبدى أن له رَبا يغفر الذنب وَيَأْخُذُ به، قَدْ غَفَرْتُ لعَبْدى. ثُمَّ عَملَ ذَنْبًا آخرَ فَقَالَ: رَبِّ، إنِّى عَملْتُ ذَنْبًا فَاغْفرهُ لى. فَقَالَ عزَّ وجلَّ: عَلمَ عَبْدى أنَّ لَهُ ربا يَغْفرُ الذَّنْبَ ويَأْخُذُ به،قَدْ غَفَرْتُ لعبْدى، ثُمَّ عَملَ ذَنْبًا آخرَ فَقَالَ: رَبِّ، إنِّى عَملْتُ ذَنْبًا فَاغْفرْهُ. فَقَالَ عزَّ وجلَّ:عَبْدى عَلم أنَّ لَهُ رَبا يَغْفرُ الذَّنْبَ ويَأخُذُ به، أُشْهدُكُم أنِّى قَدْ غَفَرْتُ لعَبْدى، فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ». أخرجاه فى الصحيح بنحوه(٢).وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة،قلنا: يا رسول الله، [إنا] إذا رأيناك رقَّت قلوبُنا، وكنا من أهل الآخرة، وإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا وشَممْنا النساء والأولاد، فقال : «لَوْ أنَّكُمْ تَكُونُونَ عَلَى كُلِّ حَال، عَلَى الْحَال الَّتى أنْتُمْ عَلَيْهَا عنْدى، لَصَافَحَتْكُمُ الملائكةُ بأكُفِّهمْ، وَلَزَارَتْكُمْ فى بُيُوتكُمْ، وَلَوْ لَمْ تُذْنبُوا لَجَاءَ اللهُ بقَوْمٍ يُذْنبُونَ كَىْ يُغْفَرَ لَهُمْ». قلنا: يا رسول الله، حَدِّثْنا عن الجنة،ما بناؤها؟ قال: «لَبِنَةٌ ذَهَب، وَلَبنَةٌ فضَّةٌ، وَملاَطُهَا الْمسْكُ الأذْفَرُ،وَحَصْبَاؤُهَا اللُّؤْلُؤُ والْيَاقُوتُ، وتُرابُهَا الزَّعْفَرَانُ، مَنْ يَدْخُلُهَا يَنْعَمُ لاَ يبأس، وَيَخْلُدُ لاَ يَمُوتُ، لاَ تَبْلَى ثيَابُهُ، وَلاَ يَفْنَى شَبَابُهُ، ثَلاَثَةٌ لاَ تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الإمَامُ الْعَادلُ، والصَّائمُ حَتَّى يُفْطرَ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُوم تُحْمَلُ عَلَى الْغَمَامِ وتُفْتَح لهَا أَبْوَابُ السَّمَاء، وَيَقُولُ الرَّبُّ: وَعزَّتى لأنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حينٍ».ورواه الترمذى، وابن ماجة (٣).

ويتأكد الوضوء وصلاة ركعتين عند التوبة، لما رواه الإمام أحمد عن على قال: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثا نفعنى الله بما شاء منه، وإذا حدثنى عنه غيره استَحْلَفْتُه، فإذا حلف لى صَدقته، وإن أبا بكر حَدثنى ، وصدَق أبو بكر:أنه سمع رسول الله ﷺ قال : « مَا منْ رَجُلٍ يُذْنبُ ذَنْبًا فَيَتَوضَّأُ ويحسن الوُضُوء ، فَيُصَلِّى ركعتين فَيَسْتَغْفرُ اللهَ عز وجلَّ إلا غَفَرَ لَهُ » . وكذا رواه على بن المَدينى ، والحُمَيْدى وأبو بكر بن أبى شيبة ، وأهل السنن ، وابن حبَّان فى صحيحه والبزار والدارقُطْنى ،

(١) رواه أحمد (٧٢٠٥) ومسلم (٢/ ٢٨٥) والترمذى (٣/ ١٥٥) من حديث أبى هريرة . وصححه الترمذى ،و لكن أوله عندهم : « ما نقصت صدقة من مال » . وليس عندهم قوله : « ثلاث أقسم عليهن » .

(٢) المسند (٧٩٣٥) والبخارى (١٣ / ٣٩٢ ، ٣٩٣ فتح) ومسلم (٢/ ٣٢٦) . والثابت هنا عمل الذنب أربع مرات ، وهو الثابت فى المخطوطة الأزهرية (٢/ ١١٥) ، وكذلك ثبت بهذه الزيادة فى جامع المسانيد نقلا عن هذا الموضع من المسند، ولكن هذه الزيادة ليست فى أصول المسند الثلاثة ، ولا فى الصحيحين ونقل الحافظ ابن كثير فى موضعين فى كتابين يرجح أن هذه الزيادة ثابتة فى أصول صحيحة من المسند.

(٣) المسند (٨٠٣٠) ، والزيادة منه . وفصلنا تخريجه هناك ، وقد مضى آخره : « ثلاثة لا ترد دعوتهم . . . » عند تفسير الآية (١٨٦) من سورة البقرة .

obeikandl.com

وقال الترمذي: هو حديث حسن[١]. وهو من رواية أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، عن خليفة النبى أبى بكر، رضى الله عنهما. ومما يشهد لصحة هذا الحديث ما رواه مسلم فى صحيحه،عن عمر عن النبى ﷺ قال: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أحدَ يَتَوَضَّأُ فيُبْلِغَ ـ أو: فَيُسْبِغَ ـ الوُضُوءَ، ثُمَّ يَقُولُ: أشْهَدُ أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ وَحْدُه لا شَرِيكَ لَهُ، وأشْهَدُ أنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ،إلا فُتِحَتْ لَهُ أبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ، يَدْخُلُ مِنْ أيِّهَا شَاءَ». وفى الصحيحين عن عثمان بن عفان، أنه توضأ لهم وُضُوء النبى ﷺ ، ثم قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ تَوضَّأ نَحْوَ وُضُوئى هَذَا ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ غُفِرَ لَهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِه». فقد ثبت هذا الحديث من رواية الأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين ، عن سيد الأولين والآخرين ورسول رب العالمين ، كما دل عليه الكتاب المبين ، من أن الاستغفار من الذنب ينفع العاصين . وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد، عن النبى ﷺ قال: «قَالَ إبْلِيسُ: يَا رَبِّ، وَعِزَّتِكَ لا أزَالُ أغوى بنى آدم ما دامت أرْوَاحُهُمْ فِى أجْسَادِهِمْ. فَقَالَ اللهُ: وَعِزَّتِى وَجَلالِى لا أزَالُ أغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِى»[٢].

وقوله: ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ أى: لا يغفرها أحد سواه، كما روى الإمام أحمد عن الأسود ابن سَرِيع؛ أن النبى ﷺ أتى بأسير فقال: اللهُم إنى أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد. فقال النبى ﷺ . «عَرَفَ الْحَقَّ لأهْلِه»[٣].

وقوله: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أى: تابوا من ذنوبهم، ورجعوا إلى الله عن قريب، ولم يستمروا على المعصية ويصروا عليها غير مقْلِعين عنها، ولو تكرر منهم الذنب تابوا عنه،كما روى أبو يعلى عن مولى لأبى بكر،عن أبى بكر، قال: قال رسول الله ﷺ : «مَا أصَرَّ مَنِ اسْتَغْفَرَ وَإنْ عَادَ فِى الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً». ورواه أبو داود، والترمذى، والبَزَّار وقول ابن المدينى والترمذى: ليس إسناد هذا الحديث بذاك، فالظاهر أنه لأجل جهالة مولى أبى بكر، ولكن جهالة مثله لا تضر؛ لأنه تابعى كبير، ويكفيه نسبته إلى أبى بكر ، فهو حديث حسن، والله أعلم[٤].

وقوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: قال مجاهد وعبد الله بن عبيد بن عُمَير: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أن من تاب تاب الله عليه. وهذا كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التوبة: ١٠٤]،وكقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠] ونظائر هذا كثيرة جدا. وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عَمْرو، عن النبى ﷺ أنه قال ـ وهو على المنبر : «ارْحَمُوا تُرْحَمُوا، واغْفِرُوا يُغْفَرْ لَكُمْ، وَيْلٌ لأقْمَاعِ الْقَوْلِ، وَيْلٌ لِلْمُصِرِّينَ الَّذِينَ يُصرونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ». تفرد به أحمد[٥].

---

(١) بل هو حديث صحيح . ورواه أيضا ابن خزيمة فى صحيحه ، كما ذكره ابن حجر فى التهذيب (١/ ٢٦٧ ، ٢٦٨) وهو الحديث رقم (٢) فى المسند . ورواه الطبرى (٧٨٥٣ ، ٧٨٥٤) .

(٢) المسند (١١٢٥٧، ١١٢٦٤، ١١٣٨٧، ١١٧٥٢) ، وهو فى الزوائد (١٠/ ٢٠٧) ونسبه أيضا للطبرانى وأبى يعلى . وقال : « وأحد إسنادى أحمد رجاله رجال الصحيح . وكذلك أحد إسنادى أبى يعلى » .

(٣) المسند (١٥٦٥١) ، وإسناده صحيح . والأسود بن سريع : هو التميمى السعدى ، الشاعر المشهور ، وهو صحابى معروف .

(٤) ورواه الطبرى أيضا (٧٨٦٣) .

(٥) المسند (٦٥٤١، ٦٥٤٢، ٧٠٤١) وأسانيده صحاح . ورواه البخارى فى الأدب المفرد (٣٨٠) . و« أقماع » : جمع «قمع » بكسر القاف وفتح الميم . وهو المعروف الذى تملأ به المائعات فى رؤوس الأوانى الضيقة . قال ابن الأثير : «شبه أسماع الذين يستمعون القول ولا يعونه ويحفظونه ولا يعملون به ـ بالأقماع التى لا تعى شيئا مما يفرغ فيها ، فكأنه يمر عليها مجازا، كما يمر الشراب فى الأقماع اجتيازا » .

ثم قال تعالى ـ بَعْد وصفهم بما وصفهم به : ﴿ أُولَئِكَ جزاؤُهُم ﴾ أي: جزاؤهم على هذه الصفات ﴿مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أي: من أنواع المشروبات ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ يمدح تعالى الجنة.

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ ﴾

يقول تعالى مخاطبا عباده المؤمنين الذين أُصيبوا يومَ أُحُد، وقُتِل منهم سبعون: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ أي: قد جرى نحو هذا على الأمم الذين كانوا من قبلكم من أتباع الأنبياء، ثم كانت العاقبة لهم والدائرة على الكافرين ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

ثم قال: ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ يعني: القرآن فيه بيان للأمور على جليتها، وكيف كان الأممُ الأقدمون مع أعدائهم ﴿وَهُدًى﴾ يعني: القرآن فيه خَبَرُ ما قبلكم وهدى لقلوبكم، و﴿مَوْعِظَةٌ﴾ أي: زاجر عن المحارم والمآثم.

ثم قال مسليا للمؤمنين: ﴿ وَلا تَهِنُوا﴾ أي: لا تَضعفوا بسبب ما جرى ﴿وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: العاقبة والنّصرة لكم أيها المؤمنون. ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾، أي: إن كنتم قد أصابتكم جراحٌ وقُتِل منكم طائفةٌ، فقد أصاب أعداءكم قريب من ذلك من قتل وجراح ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ أي: نُديل عليكم الأعداء تارة، وإن كانت العاقبة لكم ، لما لنا في ذلك من الحكمة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال ابن عباس: في مثل هذا لنَرَى، من يَصبر على مناجزة الأعداء ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾ يعني: يُقتلون في سبيله، ويَبْذُلون مُهَجهم في مرضاته. ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ. وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: يكفر عنهم من ذنوبهم، إن كانت لهم ذنوب، وإلا رُفِعَ لهم في درجاتهم بحسب ما أصيبوا به، وقوله: ﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: فإنهم إذا ظفروا بَغَوا وبَطِروا ، فيكون ذلك سَبَبَ دمارهم وهلاكهم ومَحْقهم وفنائهم.

ثم قال: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ أي: أحسبتم أن تدخلوا الجنة ولم تُبْتَلوا بالقتال والشدائد؟ كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقال تعالى: ﴿الم. أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ. وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ـ٣] ؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ أي: لا يحصل لكم دخول الجنة حتى تُبْتَلَوا ويرى الله منكم المجاهدين في سبيله ،والصابرين على مقاومة الأعداء.

obeikandl.com

وقوله : ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ أى: قد كنتم ـ أيها المؤمنون ـ قبل هذا اليوم تتمنون لقاء العدو وتتحرقون عليه، وتودون مناجزتهم ومصابرتهم، فها قد حصل لكم الذى تمنيتموه وطلبتموه، فدونكم فقاتلوا وصابروا . وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لا تَمَنَّوْا لِقاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُوا اللهَ الْعافِيَةَ، فَإِذَا لقيتموهم فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلالِ السُّيُوفِ»[1]. ولهذا قال: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ يعنى : الموت شاهدتموه فى لَمَعَان السيوف، وحدّ الأسنّة ، واشتباك الرِّماح، وصفوف الرجال للقتال . والمتكلمون يعبرون عن هذا بالتخْييل ، وهو مشاهدة ما ليس بمحسوس كالمحسوس، كما تَتَخيل الشاة صداقة الكبش وعداوة الذئب.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِى الشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْءَاخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾

لما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أُحُد، وقُتِل من قتل منهم، نادى الشيطان: ألا إن محمداً قد قُتِل. ورجع ابن قَمِيئَةَ إلى المشركين فقال لهم: قتلتُ محمدا! وإنما كان قد ضرب رسول الله ﷺ ، فشَجَّه فى رأسه، فوقع ذلك فى قلوب كثير من الناس واعتقدوا أن رسول الله قد قُتل، وجوَّزوا عليه ذلك، كما قد قَصَّ الله عن كثير من الأنبياء، عليهم السلام، فحصل وهَن وضعف وتأخر عن القتال ، ففى ذلك أنزل الله على رسوله ﷺ : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أى: له أسْوة بهم فى الرسالة وفى جواز القتل عليه.

ثم قال تعالى منكرا على من حصل له ضعف : ﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ أى : رجعتم القَهْقرى ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ أى : الذين قاموا بطاعته ، وقاتلوا عن دينه ، واتبعوا رسوله حيا وميتا . كذلك ثبت فى الصحاح والسنن والمسانيد ، وغيرها من كتب الإسلام من طُرُق متعددة تفيد القطْع: أن الصدّيق ـ رضى الله عنه ـ تلا هذه الآية لما مات رسول الله ﷺ . وروى البخارى عن الزهرى: أخبرنى أبو سَلَمة؛ أنّ عائشة أخبرته أن أبا بكر، أقبل على فَرَس من مَسْكنه بالسُّنْح حتى نَزَل فدخل المسجد، فلم يُكلم الناس حتى دخل على عائشة فتيمَّم رَسُول الله ﷺ وهو مُغَشًى بثوب حِبَرَة، فكشف عن وجهه ، ثم أكب عليه وقَبَّله وبكى، ثم قال: بأبى أنت وأمى. والله لا يجمع الله عليك موْتَتَين ؛ أما الموتة التى كُتبت عليك فقد مُتَّها. وقال الزهرى: وحدثنى أبو سَلَمة عن ابن عباس، أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس فقال : اجلس يا عمر، قال أبو بكر : أما

(١) ضمن حديث فى البخارى (٦/١٠٩ ـ ١١١ فتح) ومسلم (٢ /٤٨) كلاهما من حديث عبد الله بن أبى أوفى . والذى فيهما : « لا تمنوا » وأصلها : « تتمنوا » بحذف إحدى التائين .

بعد، مَنْ كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حَيّ لا يموت، قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ إلى قوله: ﴿الشَّاكِرِينَ﴾ قال: فوالله لكأنّ الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشرًا من الناس إلا يتلوها. وأخبرني سعيد بن المُسَيَّب أن عُمر قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فَعقرتُ حتى ما تقلني رجلاى، وحتى هَوَيتُ إلى الأرض [(١)].

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً﴾ أي: لا يموت أحد إلا بقدر الله، وحتى يستوفى المدةَ التى ضربها الله له؛ ولهذا قال: ﴿كِتَابًا مُّؤَجَّلاً﴾، كقوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر: ١١]، وكقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ﴾ [الأنعام: ٢]. وهذه الآيةُ فيها تشجيع للجُبَناء وترغيب لهم فى القتال، فإن الإقدام والإحجام لا يَنْقُص من العمر ولا يزيد فيه كما روى ابن أبى حاتم عن حبيب بن صُهبان، قال: قال رجل من المسلمين ـ وهو حُجْر بن عَدِىّ: ما يمنعكم أن تعبُروا إلى هؤلاء العدو، هذه النطفة؟! ـ يعنى دِجْلَة ـ ﴿مَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً﴾، ثم أقحم فرسه دجلة فلما أقحم أقحم الناس فلما رآهم العدوّ قالوا: ديوان، فهربوا[(٢)].

وقوله: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ أى: من كان عمله للدنيا فقط نال منها ما قَدّرَه الله له، ولم يكن له فى الآخرة نصيب، ومن قصد بعمله الدار الآخرة أعطاه الله منها مع ما قسم له فى الدنيا كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا . وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩] وهكذا قال هاهنا: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ أى: سنعطيهم من فضلنا ورحمتنا فى الدنيا والآخرة بحسب شُكْرهم وعملهم.

ثم قال تعالى ـ مسلياً للمؤمنين عما كان وقع فى نفوسهم يوم أُحُد: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ [(٣)]، قيل: معناه: كم من نبى قُتِل وقتل معه ربيون من أصحابه كثير. وهذا القول هو اختيار ابن جرير، فإنه قال: وأما الذين قرؤوا: ﴿قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ فإنهم قالوا: إنما عنى بالقتل النبى وبعض من معه من الربيين دون جميعهم، وإنما نفى الوهن والضعف عمن بقى من الربيين ممن لم يقتل. قال:

---

(١) هكذا ساقه البخارى حديثًا واحدًا (٨/ ١١٠، ١١١ فتح) واختصره ابن كثير قليلا. وهو فى حقيقته ثلاثة أحاديث رواها الزهرى: اثنان منها عن أبى سلمة عن عائشة، وعن أبى سلمة عن ابن عباس، والثالث عن ابن المسيب عن عمر.

(٢) حبيب بن صهبان أبو مالك الأسدى: تابعى كبير ثقة. روى عن عمر وغيره. وثقه ابن سعد (٦ / ١١٥)، وغيره. و « صهبان »: بضم الصاد المهملة وسكون الهاء. ووقع فى المخطوطة « ضبيان »، وفى المطبوعة « ظبيان »! وكلاهما تصحيف. وهذه الحادثة كانت فى فتح المدائن سنة ١٦. وقد رواها الطبرى فى تاريخه بنحو معناها (٤/ ١٧٢، ١٧٣) بإسنادين. وفيه: « عن حبيب بن صهبان أبى مالك، قال: لما عبر المسلمون يوم المدائن دجلة، فنظروا إليهم يعبرون، جعلوا يقولون بالفارسية: ديوان آمد. وقال بعضهم لبعض: والله ما تقاتلون الإنس، وما تقاتلون إلا الجن! فانهزموا ». وذكرها ابن كثير فى التاريخ مختصرة (٧ / ٦٤). وكلمة « ديوان » ـ معناها: الشيطان. انظر المعرب للجواليقى، (ص ١٥ طبع دار الكتب المصرية بتحقيقنا).

(٣) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن محيصن واليزيدى (قتل) بضم القاف وكسر التاء. وهى القراءة التى فسر عليها الحافظ ابن كثير هنا ثم حكى بعد ذلك القراءة الأخرى (قاتل)، وهى قراء باقى القراء الأربعة عشر، وعليها قراءة حفص المعروفة.

ومن قرأ ﴿ قاتل ﴾ فإنه اختار ذلك لأنه قال : لو قتلوا لم يكن لقوله: ﴿ فَمَا وَهَنُوا ﴾ وجه معروف؛ لأنهم يستحيل أن يُوصَفوا بأنهم لم يهنوا ولم يضعفوا بعد ما قتلوا. ثم اختار قراءة من قرأ ﴿قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾(١) ؛ لأن الله عاتب بهذه الآيات والتى قبلها من انهزم يوم أحد، وتركوا القتال لما سمعوا الصائح يصيح: « بأن محمدًا قد قتل. فعذلهم الله على فرارهم وتركهم القتال فقال لهم : ﴿ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ﴾ أيها المؤمنون ارتددتم عن دينكم ﴿ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴾ ؟ وقيل: وكم من نبى قُتِل بين يديه من أصحابه ربيون كثير.

وعن ابن مسعود ﴿رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾، أى: ألوف. وقال ابن عباس، ومجاهد وسعيد بن جُبَيْر وغيرهم : الربيون: الجموع الكثيرة. وقال الحسن: أى: علماء كثير، وعنه أيضًا: علماء صُبُر أبرار أتقياء. وحكى ابن جرير، عن بعض نحاة البصرة: هم الذين يعبدون الرب، عز وجل، قال: ورد بعضهم عليه فقال: لو كان كذلك لقيل « الربيون »، بفتح الراء. وقال ابن زيد: الربيون: الأتباع، والرعية، والربانيون: الولاة.

﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ قال قتادة والربيع بن أنس: ﴿وَمَا ضَعُفُوا ﴾ بقتل نبيهم ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾، يقول: فما ارتدوا عن بصيرتهم (٢) ولا عن دينهم، أنْ قاتلوا على ما قاتل عليه نبى الله حتى لحقوا بالله. ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ . وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أى: لم يكن لهم هجيرى إلا ذلك (٣). ﴿ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ أى: النصر والظفر والعاقبة ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ﴾ أى: جمع لهم ذلك مع هذا، ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

ربع

يحذر تعالى عباده المؤمنين عن طاعة الكافرين والمنافقين ، فإن طاعتهم تورث الردى في الدنيا والآخرة (٤) ؛ ولهذا قال : ﴿ إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾. ثم أمرهم بطاعته

(١) انظر الطبرى (٧/ ٢٦٤ ، ٢٦٥ طبعتنا) .
(٢) فى المطبوعة : « عن نصرتهم » وهو خطأ ، والصواب من المخطوطة الأزهرية . وانظر الطبرى (٧ / ٢٧٠) .
(٣) أى : لم يكن دأبهم وشأنهم وكلامهم إلا ذلك . وهى بكسر الهاء وتشديد الجيم المكسورة وآخرها ألف مقصورة .
(٤) وقد وقع المسلمون فى هذه العصور الأخيرة فيما نهاهم الله عنه من طاعة الذين كفروا فأسلموا إلى الكفار عقولهم وألبابهم، وأسلموا إليهم ـ فى بعض الأحيان ـ بلادهم ، وصاروا فى كثير من الأقطار رعية للكافرين من الحاكمين ، وأتباعًا لدول هى ألد الأعداء للإسلام والمسلمين ، ووضعوا فى أعناقهم ربقة الطاعة لهم ، بما هو من حق الدول من طاعة المحكوم للحاكم . بل قاتل ناس ينتسبون للإسلام من رعايا الدول العدوة للإسلام ـ إخوانهم المسلمين فى دول كانت إسلامية إذ ذاك . ثم عم البلاء ، فظهر حكام فى كثير من البلاد الإسلامية يدينون بالطاعة للكفار ـ عقلا وروحًا وعقيدة ـ واستذلوا الرعية من المسلمين وبثوا فيهم عداوة الإسلام بالتدريج، حتى كادوا يردوهم على أعقابهم خاسرين ، وما أولئك بالمسلمين . فإنا لله وإنا إليه راجعون .

وموالاته، والاستعانة به، والتوكل عليه، فقال: ﴿بل اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾.

ثم بشرهم بأنه سيُلقى في قلوب أعدائهم الخوف منهم والذلة لهم، بسبب كفرهم وشركهم، مع ما ادخره لهم في الدار الآخرة من العذاب والنَّكال، فقال: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾. وقد ثبت في الصحيحين عن جابر بن عبد الله، أنّ رسول الله ﷺ قال: «أُعْطِيتُ خَمساً لَمْ يُعطهنّ أحدٌ منَ الأنْبِيَاء قَبْلِي: نُصِرتُ بالرعبِ مَسيرةَ شهْرٍ، وجعلتْ لِي الأرْضُ مَسْجداً وطَهُوراً، وأُحلَّت لي الْغَنَائِمُ وأُعْطِيتَ الشَّفَاعَةَ، وكَانَ النَّبِي يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِه خَاصة وبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً». وروى الإمام أحمد عن أبي أمامة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «فَضَّلَنِي رَبِّي عَلَى الأنبِيَاء ـ أو قال: عَلَى الأمَمِ ـ بأَرْبَعٍ»: «أُرْسِلْتُ إلي النَّاسِ كَافَّةً وجُعِلتْ لِيَ الأَرْضُ كُلُّهَا ولأُمَّتي مَسْجداً وطَهُوراً، فَأَيْنَما أدْرَكَتْ رَجُلاً منْ أُمتي الصَّلاةُ فعنْدَهُ مَسجِدُهُ وطَهُورُهُ، ونُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسيرَةَ شَهْرٍ يَقْذِفُهُ في قُلُوبِ أعْدَائِي وأحَل لَنا الغنائم». ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح[(١)]. وروى الإمام أحمد عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا: بُعِثْتُ إِلَى الأحْمَرِ والأسْوَدِ، وجُعِلَتْ لِيَ الأرْضِ طَهُوراً ومَسْجدًا، وأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِم ولَمْ تَحل لِمَنْ كَانَ قَبْلِي، ونُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مسيرة شهر، وأُعْطِيتُ الشَّفاعَةَ، ولَيْسَ مِنْ نَبِيٍّ إلاَّ وَقَدْ سَأَلَ شَفَاعَتَهُ، وإنِّي اخْتَبَأْتُ شَفَاعتِي، ثُمَّ جَعَلْتُهَا لِمَنْ مَاتَ لا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا». تفرد به أحمد[(٢)].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾. قال ابن عباس: وعدهم الله النصر.

وقد يستدل بهذه الآية على أحد القولين المتقدمين في قوله: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ. بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾: أن ذلك كان يوم أحد لأن عدوهم كان ثلاثة آلاف مقاتل، فلما واجهوهم كان الظفر والنصر أول النهار للإسلام، فلما حصل ما حصل ـ من عصيان الرُّماة وفشل بعض المقاتلة، تأخر الوعد الذي كان مشروطا بالثبات والطاعة[(٣)]؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أي: أول النهار ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾ أي: تقتلونهم ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي: بتسليطه إياكم عليهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ قال ابن عباس: الفشل الجبن ﴿وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم﴾ كما وقع للرماة ﴿مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ وهو الظفر بهم، ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ وهم الذين رغبوا في المغنم حين رأوا الهزيمة ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ ثم أدالهم عليكم[(٤)] ليختبركم ويمتحنكم ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ أي: غفر لكم ذلك الصَّنيع، وذلك ـ والله أعلم ـ لكثرة عدَد العدو وعُدَدهم، وقلة عدَد المسلمين وعُدَدهم ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، روى الإمام أحمد عن عبيد الله [هو ابن عبد الله بن عتبة بن مسعود] عن ابن عباس أنه قال: ما نَصَر الله في مَوْطن كما نصر يوم أحد. فأنكرنا ذلك! فقال ابن عباس: بيني وبين من أنكر ذلك كتابُ الله، إن الله يقول في يوم أحد: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾، يقول ابن عباس: والْحَسُّ:

---

(١) المسند (٥/٢٤٨ حلبي). وصححناه منه ومن المخطوطة.

(٢) المسند (٤/٤١٦ حلبي) والزوائد (٨/٢٥٨) وقال: «رواه أحمد متصلا ومرسلا، والطبراني، ورجاله رجال الصحيح». وقد رواه أحمد أيضا بنحوه (٢٧٤٢) من حديث ابن عباس. وإسناده صحيح. وهذا المعنى ثابت عن كثير من الصحابة، حتى ليكاد يكون متواترا معنى.

(٣) انظر ما مضى عند تفسير الآيات: (١٢٤ ـ ١٢٩).

(٤) في المطبوعة: «ثم أدالكم عليهم»؛ وهو تخليط نقيض للمراد. والصواب من المخطوطة.

القتل . ﴿ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، وإنما عنى بهذا الرُّماة، وذلك : أن النبي ﷺ أقامهم في موضع ، ثم قال: « احْمُوا ظُهُورَنَا ، فَإِنْ رَأَيْتُمُونَا نقتل فَلا تَنْصُرُونَا، وَإِنْ رَأَيْتُمونَا قَدْ غَنِمْنَا فَلا تشْرِكُونَا. فلما غنم النبي ﷺ وأباحُوا عسكر المشركين أكبَّ الرُّماة جميعا في العسكر ينهبون، ولقد التقت صفوف أصحاب رسول الله ﷺ ، فَهُم هكذا ـ وشبك بين يديه ـ وانتشبوا، فلما أخل الرماة تلك الخلَّة التي كانوا فيها، دخلت الخيل من ذلك الموضع على أصحاب رسول الله ﷺ ، فضرب بعضهم بعضا والتبسوا، وقُتل من المسلمين ناس كثير، وقد كان لرسول الله ﷺ وأصحابه أول النهار، حتى قُتِل من أصحاب لواء المشركين سبعة أو تسعةٌ، وجال المشركون جَوْلَةً نحو الجبل ولم يبلغوا ـ حيث يقول الناس ـ الغار، إنما كانوا تحت المِهْراس، وصاح الشيطان: قُتل محمد! فلم يُشَكّ فيه أنه حق، فما زلنا كذلك ما نَشُكّ أنه حق، حتى طلع رسول الله ﷺ بين السعدين، نعرفه بتكفئه إذا مشى، قال: ففرحنا حتى كأنه لم يصبنا ما أصابنا، قال: فَرَقِيَ نحونا وهو يقول: «اشتد غَضَبُ الله عَلَى قَوْمٍ دَمَّوْا وَجْهَ رَسُولِ الله». ويقول مرة أخرى: [«اللَّهم إنه] ليس لَهمْ أنْ يَعْلُونَا». حتى انتهى إلينا، فمكث ساعة، فإذا أبو سفيان يصيح في أسفل الجبل: اعْلُ هبل، مرتين ـ يعني إلهه ـ أين ابن أبي كَبْشة؟ أين ابن أبي قحَافة ؟ أين ابن الخطاب؟ فقال عمر: يا رسول الله، ألا أجيبه؟ قال: «بلى» قال: فلما قال: اعل هبل. قال عمر: الله أعلى وأجل.

فقال أبو سفيان: إنه قد أنعمتْ عينُها فعَال عنها ، فقال: أين ابن أبي كبشة؟ أين ابن أبي قُحَافة؟ أين ابن الخطاب؟ فقال عمر: هذا رسول الله، وهذا أبو بكر، وها أنا ذا عمر. قال: فقال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، الأيام دُوَل، وإن الحرب سِجَال. قال: فقال عمر: لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار. قال : إنكم لتزعمون ذلك ، لقد خِبْنا إذن وخَسِرْنا ثم قال أبو سفيان : إنكم ستجدون في قتلاكم مُثْلَةً ، ولم يكن ذلك عن رأى سَرَاتِنا. قال: ثم أدركَتْه حَمِيَّة الجاهلية فقال: أما إنه إن كان ذلك لم نَكْرهْه . هذا حديث غريب ، وسياق عجيب ، وهو من مرسلات ابن عباس، فإنه لم يشهد أحُدًا ولا أبوه. وقد أخرجه الحاكم وابن أبي حاتم والبيهقي في دلائل النبوة، ولبعضه شواهد في الصحاح وغيرها (١)، فروى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال : إن النساء كن يوم أحد ، خلْف المسلمين ، يُجْهِزْن على جَرْحى المشركين، فلو حَلفَت يومئذ رجوت أن أبَر: أنه ليس منا أحد يريد الدنيا ، حتى أنزل الله : ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾ فلما خالف أصحاب النبي ﷺ وعَصَوا ما أمروا به، أفرد رسول الله ﷺ في تسعة: سبعة من الأنصار، ورجلين من قريش، وهو عاشرهم، فلما رهقُوه قال: «رَحِم اللهُ رَجُلاً رَدَّهُمْ عَنَّا». قال: فقام رجل من الأنصار فقاتل ساعة حتى قتل، فلما رَهقُوه أيضا قال: «رَحِمَ اللهُ رَجُلاً رَدَّهُمْ عَنَّا». فلم يزل يقول ذا حتى قُتِل السبعة، فقال

(١) المسند (٢٦٠٩). وقد صححنا نصه منه ومن المخطوطة الأزهرية . وذكره الحافظ ابن كثير في التاريخ أيضًا (٤/ ٢٤ ، ٢٥)، وقال: « وهذا حديث غريب، وهو من مرسلات ابن عباس، وله شواهد من وجوه كثيرة». وإسناده صحيح، وقد صححه الحاكم (٢/ ٢٩٦، ٢٩٧)، ووافقه الذهبي. وظاهر سياقه قد يوهم أن ابن عباس شهد الوقعة، وليس مرادًا على اليقين ، فإنه كان إذا ذاك طفلا مع أبيه بمكة . وسامعوه حين تحدث به ، ومنهم عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ـ يعرفون ذلك لا يشكون فيه ـ فهو من مراسيله كما قال ابن كثير . بل الراجح أنه حدث به عن أحد من الصحابة ممن شهدها ، فأسقط بعض الرواة اسمه . ولكن بقيت الدلالة عليه في نص الحديث ، مثل قوله « فما زلنا كذلك » ، «فرقى نحونا» وغيرهما . فهو عن أحد الصحابة الذين كانوا على الجبل تحت المهراس. وقد أشار إليه الحافظ في الفتح (٧ / ٢٧٠) .

رسول الله ﷺ لصاحبه: «مَا أَنْصَفْنا أصْحَابَنا». فجاء أبو سفيان فقال: اعْلُ هُبَلُ! فقال رسول الله ﷺ: «قُولُوا: اللهُ أعْلَى وأجَلُّ». فقالوا: الله أعلى وأجل. فقال أبو سفيان: لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم فقال رسول الله ﷺ: قُولُوا: «اللهُ مَوْلانَا، وَالْكَافِرُونَ لاَ مَوْلَى لَهُم». فقال أبو سفيان: يومٌ بيوم بَدْر، يومٌ علينا ويوم لنا، ويوم نُسَاءُ ويوم نُسَر. حَنْظَلَةَ بحنْظَلَةَ، وفلان بفلان، فقال رسول الله ﷺ: «لاَ سَوَاء. أمَّا قَتْلانَا فأحْيَاءٌ يُرْزَقُونَ، وَقَتْلاَكُمْ فِي النَّارِ يُعَذَّبُون». قال أبو سفيان: قد كانت فى القوم مُثْلَةٌ، وإنْ كانَتْ لَعَنْ غير مَلأ منَّا، ما أمرتُ ولا نَهَيْتُ، ولاَ أحْبَبْتُ ولا كَرِهتُ، ولا ساءنى ولا سرَّنى. قال: فنظروا فإذا حمزةُ قد بُقِرَ بَطْنُه، وأخذتْ هند كبده فلاكَتْها فلم تستطع أن تأكلها، فقال رسول الله ﷺ: «أكَلَتْ شَيْئاً؟» قالوا: لا. قال: «مَا كَانَ اللهُ لِيُدْخِلَ شَيْئًا مِنْ حَمْزَةَ فِى النَّارِ». قال: فوضع رسول الله ﷺ حمزة فَصَلَّى عليه، وَجِيء برجل من الأنصار فَوُضِع إلى جنبه فصلَّى عليه، فَرُفِعَ الأنصارى وتُرِكَ حمزة، ثم جيء بآخر فوضعَه إلى جنب حمزة فصلى عليه، ثم رُفِعَ وتُرِكَ حمزة، حتى صَلَّى عليه يومئذ سبعين صلاة. تفرد به أحمد أيضاً (١).

وروى البخارى عن البراء قال: لقينا المشركين يومئذ، وأجْلَس النبى ﷺ جَيْشا من الرُّماة، وأمَّر عليهم عبد الله بن جُبَيْر وقال: «لاَ تَبْرَحُوا إنْ رأيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ فَلاَ تَبْرَحُوا، وإنْ رَأيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلاَ تُعِينُونَا». فلما لقيناهم هربُوا، حتى رأيت النساء يَشْتَدِدْنَ فى الجبل، رَفَعْنَ عن سُوقهن، وقد بدت خَلاخلهن، فأخذوا يقولون: الغنيمةَ الغَنيمة. فقال عبد الله بن جبير: عَهِدَ إلىّ النبىّ ﷺ ألاَ تَبْرَحُوا. فأبَوْا، فلما أبَوْا صَرَف وجوههم، فأُصِيب سبعون قتيلا، وأشرف أبو سفيان فقال: أفى القوم محمد؟ فقال: «لاَ تُجيبُوهُ». فقال: أفى القوم ابن أبى قحافة؟ فقال: «لاَ تُجيبُوهُ». فقال: أفى القوم ابن الخطاب؟ فقال له: إن هؤلاء قُتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا. فلم يملك عُمَرُ نفسه فقال: كَذَبْتَ يا عَدُوَّ الله، قد أبقى الله لك ما يخزيك. فقال أبو سفيان: اعْلُ هُبَل! فقال النبى ﷺ: « أجيبُوهُ » . قالوا: ما نقول؟ قال: «قُولُوا: اللهُ أعْلَى وأجَلُّ». فقال أبو سفيان: لنا العُزَّى ولا عُزَّى لَكم! فقال النبى ﷺ: «أجيبُوهُ». قالوا: ما نقول؟ قال: «قُولُوا: اللهُ مَوْلاَنَا، وَلاَ مَوْلَى لَكُمْ». قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجَال، وتجدون مُثْلَةً لم آمر بها ولم تسؤنى (٢).

﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ وروى البخارى عن أنس بن مالك: أن عمه ـ يعنى أنس بن النضر ـ غاب عن بدر فقال: غِبْتُ عن أول قتال النبى ﷺ، لَئِنْ أشْهدنى الله مع رسول الله ﷺ ليَرَيَنّ الله ما أجِدّ، فلقى يومَ أحد، فهُزم الناسُ، فقال: اللهُمّ إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعنى المسلمين ـ وأبرأ إليك مما جاء به المشركون، فتقدم بسيفه فَلقى سعدَ بن مُعَاذ فقال: أينَ يا سعد؟ إنى أجدُ ريح الجنة دون أحد. فمضى فَقُتِل، فما عُرف حتى عَرَفته أخته ببنانه بشامة أو بثيابه، وبه بضع وثمانون من طَعْنة وضَرْبة ورَمْية بسَهْم وأخرجه مسلم بنحوه (٣).

وقوله: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ أى: صرفكم عنهم إذ تصعدون، أى: فى الجبل هاربين من أعدائكم ﴿وَلا

---

(١) المسند (٤٤١٤) . ونقله ابن كثير فى التاريخ أيضا (٤ / ٤٠ ، ٤١) وقال : « تفرد به أحمد ، وهذا إسناد فيه ضعف من جهة عطاء بن السائب». وكذلك قال صاحب الزوائد (٦/ ١٠٩، ١١٠) : « وفيه عطاء بن السائب، وقد اختلط». وهذا التعليل منهما غير جيد؛ لأن حماد بن سلمة ـ راويه ـ سمع من عطاء قديما قبل اختلاطه .

(٢) فتح البارى (٧/ ٢٦٩ ـ ٢٧٢) .

(٣) الفتح (٧ / ٢٧٤) .

﴿تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ أى: وأنتم لا تلوون على أحد من الدَّهَش والخوف والرعب ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ أى: وهو قد خلفتموه وراء ظُهوركم يدعوكم إلى تَرْك الفرار من الأعداء، وإلى الرجعة والعودة والكرة. وثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ : «اشْتَدَّ غَضَبُ اللهَ عَلَى قَوْمٍ فَعَلُوا بِرَسُولِ اللهِ ـ وهو حينئذ يشير إلى رباعيته ـ اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى رَجُلٍ يَقْتُلُهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِى سَبِيلِ اللهِ»(١). وأخرج البخارى عن ابن عباس قال: اشتد غضب الله على من قتله رسول الله بيده فى سبيل الله، اشتد غضب الله على قوم دَمَّوا وجه رسول الله ﷺ . وقال ابن إسحاق: أصيبت رَبَاعِية رسول الله ﷺ وشج فى وَجْنَته، وكُلِمَت شَفَتُهُ، وكان الذى أصابه عتبة بن أبى وقاص.

قال الواقدى: والثَّبَتُ عندنا أن الذى دمَّىَ وَجْنَتى رسول الله ﷺ ابن قَمِيئة، والذى رَمى شفته وأصاب رباعيته عتبة بن أبى وقاص . وقد ثبت فى الصحيحين عن سَهْل بن سَعْد أنه سئل عن جُرْح رَسُول الله ﷺ فقال: جُرِح وجه رسول الله ﷺ ، وكُسِرت رَبَاعِيَته، وهُشِمَت البَيْضة على رأسه، فكانت فاطمة [بنت رسول الله ﷺ] تغسل الدم ، وكان عَلِى يسكب عليه بالمِجَنّ ، فلما رأت فاطمة أن الماء لايزيدُ الدم إلا كثرة، أخذت قطعة من حَصِير فأحرقتها، حتى إذا صارت رمادا ألصقته بالجُرْح، فاستمسك الدم.

وقوله: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾ أى: فجازاكم غَما على غَم كما تقول العرب: نزلت ببنى فلان، ونزلت على بنى فلان. وقال ابن جرير: وكذا قوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه:٧١] أى: على جذوع النخل. قال ابن عباس: الغم الأول: بسبب الهزيمة وحين قيل: قتل محمد ﷺ ، والثانى: حين علاهم المشركون فوق الجبل، وقال النبى ﷺ : «اللَّهُمَّ لَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَعْلُونا». وعن عبد الرحمن بن عوف: الغم الأول: بسبب الهزيمة، والثانى: حين قيل: قُتِلَ محمد ﷺ ، كان ذلك عندهم أشد وأعظم من الهزيمة رواهما ابن مَرْدُوَيه، قال ابن جرير: وأولى هذه الأقوال بالصواب قولُ من قال: فأثابكم بغَمكُم ـ أيها المؤمنون ـ بحرمان الله إياكم غنيمةَ المشركين والظَّفر بهم والنصرَ عليهم، وما أصابكم من القتل والجراح يومئذ ـ بعد الذى كان قد أراكم فى كل ذلك ما تحبون ـ بمعصيتكم ربكم، وخلافكم أمر نبيكم ﷺ ، غَم ظنكم أن نبيكم قد قتل، وميل العدو عليكم بعد قُفولكم منهم(٢).

وقوله: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ أى: على ما فاتكم من الغنيمة والظفر بعدوكم ﴿وَلَا مَآ أَصَابَكُمْ﴾ من القتل والجراح، قاله ابن عباس وغيره ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ

(١) الفتح (٧/ ٢٨٦) ومسلم (٢/ ٦٧) . وهو فى الحقيقة حديثان ، من صحيفة همام بن منبه عن أبى هريرة ، فى المسند (٨١٩٨ ، ٨١٩٨م) .

(٢) يعنى بعد هزيمتكم وفراركم منهم . وهذا هو الذى فى المخطوطة الأزهرية . وفى المطبوعة : « ونبوكم منهم » ! وهو تصرف غير سديد من الطابع . والذى أثبتنا هو الموافق لما فى الطبرى (٧ / ٣١٣) .

عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾

يقول تعالى مُمْتنا على عباده فيما أنزل عليهم من السكينة والأمَنَة، وهو النعاس الذى غشيهم وهم مستَلْئمو السلاح فى حال هَمِّهم وغَمِّهم(١)، والنعاس فى مثل تلك الحال دليل على الأمان ، كما قال فى سورة الأنفال، فى قصة بدر: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ الآية [الأنفال: ١١] . وروى ابن أبى حاتم عن عبد الله بن مسعود قال: النعاس فى القتال من الله، وفى الصلاة من الشيطان (٢).

وروى البخارى عن أبى طلحة قال: غَشينا النعاس ونحن فى مَصَافنا يوم أحد. قال: فجعل سيفى يسقط من يدى وآخذه، ويسقط وآخذه. وقد رواه الترمذى والنسائى والحاكم بنحو معناه. والطائفة الأخرى: المنافقون ليس لهم هَمٌّ إلا أنفسهُم، أجبن قوم وأرعبه، وأخْذَله للحق ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ أهل شك وريب فى الله، عز وجل. فإن الله عز جل يقول: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾ يعنى: أهل الإيمان واليقين والثبات والتوكل الصادق، وهم الجازمون بأن الله عز وجل سينصر رسوله ويُنْجز له مأموله، ولهذا قال: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ يعنى: لا يغشاهم النعاس من القلق والجزع والخوف ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢] وهكذا هؤلاء، اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنَّها الفيصلة، وأن الإسلام قد باد وأهلُه! هذا شأن أهل الريب والشك : إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة، تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة. ثم أخبر تعالى عنهم أنهم ﴿يَقُولُونَ﴾ فى تلك الحال: ﴿هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾؟ قال الله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾، ثم فَسر ما أخفوه فى أنفسهم بقوله : ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ أى: يُسرون هذه المقالة عن رسول الله ﷺ . وعن عبد الله بن الزبير قال: قال الزبير: لقد رأيتنى مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا، أرسل الله علينا النوم، فما منا من رجل إلا ذقنه فى صدره، قال : فوالله إنى لأسمع قول مُعَتِّب بن قُشَير ، ما أسمعه إلا كالحلم : ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾. فحفظتها منه ، وفى ذلك أنزل الله : ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ لقول مُعتِّب. رواه ابن أبى حاتم (٣).

قال الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ أى: هذا قدر مقدر من الله عز وجل، وحكم حَتْم لازم لا يحاد عنه، ولا مناص منه.

وقوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أى: يختبركم بما جرى عليكم ، ليميز الخبيثَ من الطيب، ويظهر أمْرَ المؤمن والمنافق للناس فى الأقوال والأفعال ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أى: بما يختلج فى الصدور من السرائر والضمائر.

---

(١) « مستلئمو السلاح » : من قولهم : « استلأم الرجل » : لبس « اللأمة » ـ بفتح اللام وسكون الهمزة ـ وهى الدرع ، وقيل : السلاح مطلقا . وفى المطبوعة : « مشتملون السلاح » ! وهو تصحيف قبيح . والصواب من المخطوطة . وقد وثقها كاتب النسخة فوضع تحت السين من كلمة « مستلئمو » ثلاث نقط ، توكيدا لإهمالها ؛ لئلا تقرأ بالمعجمة .

(٢) إسناده صحيح . وهو ـ وإن كان موقوفا على ابن مسعود لفظا ـ فإنه يعتبر مرفوعا حكما .

(٣) إسناده صحيح .

ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ أي: ببعض ذنوبهم السالفة، كما قال بعض السلف: إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، وإن من جزاء السيئة السيئة بعدها.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾، أي: عمّا كان منهم من الفرار ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي: يغفر الذنب ويحلُم عن خلقه، ويتجاوز عنهم، روى الإمام أحمد عن عاصم، عن شقيق، قال: لقى عبدُ الرحمن بن عوف الوليد بن عقبة، فقال له الوليد: ما لى أراك جفوتَ أمير المؤمنين عثمانَ؟ فقال له عبد الرحمن: أبلغه أنى لم أفر يوم عَيْنَيْن قال عاصم: يقول يوم أحد ـ ولم أتخلف عن بدر، ولم أترك سُنة عمر! قال: فانطلق فَخَبر بذلك عثمان، قال: فقال: أما قوله: إنى لم أفر يوم عَيْنَيْن ـ فكيف يعيرنى بذلك وقد عفا الله عنه، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ ؟! وأما قولُهُ: إنى تخلفت يوم بدر ـ فإنى كنت أُمرِّض رقيَّة بنت رسول الله ﷺ حتى ماتت، وقد ضرب لى رسول الله ﷺ بسهم، ومن ضرب له رسول الله ﷺ بسهم فقد شهد. وأما قوله: إنى تركتُ سنَّة عمر ـ فإنى لا أطيقها ولا هو، فأته فحدِّثْه بذلك (١).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن مشابهة الكفار فى اعتقادهم الفاسد، الدال عليه قولهم عن إخوانهم الذين ماتوا فى الأسفار وفى الحروب: لو كانوا تركوا ذلك لما أصابهم ما أصابهم. فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ أي: عن إخوانهم ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: سافروا للتجارة ونحوها ﴿أَوْ كَانُوا غُزًّى﴾ أي: فى الغزو ﴿لَوْ كَانُوا عِندَنَا﴾ أي: فى البلد ﴿مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ أي: ما ماتوا فى السفر ولا قتلوا فى الغزو.

وقوله: ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: خلق هذا الاعتقاد فى نفوسهم ليزدادوا حسرة على موتهم وقتلهم. ثم قال تعالى ردا عليهم: ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: بيده الخلق وإليه يرجع الأمر، ولا يحيا أحد ولا يموت إلا بمشيئته وقدره، ولايُزَاد فى عُمُر أحد ولا يُنْقَص منه إلا بقضائه وقدره ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: وعلمه وبصره نافذ فى جميع خلقه، لا يخفى عليه من أمورهم شىء.

وقوله: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ تضمن هذا أن القتل فى سبيل الله، والموت أيضا، وسيلة إلى نيل رحمة الله وعَفوه ورضوانه، وذلك خير من البقاء فى الدنيا وجمع حطامها الفانى.

---

(١) المسند (٤٩٠). وإسناده صحيح. وعاصم: هو ابن أبى النجود. ووقع فى متن الحديث تحريف فى المطبوعة، صححناه من المسند والمخطوطة، وذكره الهيثمى فى الزوائد (٧ / ٢٢٦، ٩/ ٨٣، ٨٤)، وزاد نسبته لأبى يعلى والطبرانى والبزار. « عينين » ـ بلفظ تثنية العين: جبل من جبال أحد. ولذلك يقال له: « يوم أحد » و« يوم عينين». ووقع فى المطبوعة: «حنين» ! وهو تصحيف عجيب. وثبت على الصواب فى المخطوطة والمسند. وقد أجاب ابن عمر عن عثمان بمثل ذلك، إذ أراد رجل من أهل مصر أن يغمز عثمان. وحديثه فى المسند (٥٧٧٢). والبخارى (٧ / ٤٨، ٤٩ فتح).

ثم أخبر بأن كل من مات أو قتل فمصيره ومرجعه إلى الله، عز وجل، فيجزيه بعمله، إن خيراً فخير، وإن شرا فشر ، فقال: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾.

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾

يقول تعالى مخاطبا رسوله ﷺ، ممتنا عليه وعلى المؤمنين، فيما ألان به قلبه على أمته، المتبعين لأمره، التاركين لزجره، وأطاب لهم لفظه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ أى: أىُّ شىء جعلك الله لهم ليناً لولا رحمة الله بك وبهم. قال قتادة :يقول: فبرحمة من الله لنت لهم. و«ما» صلة، والعربُ تصلها بالمعرفة كقوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٥، المائدة: ١٣]، وبالنكرة كقوله: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ [المؤمنون: ٤٠] وهكذا هاهنا: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ أى: برحمة من الله. وقال الحسن البصرى: هذا خُلُقُ محمد ﷺ بعثه الله به. وهذه الآية الكريمة شبيهة بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ الفظ: الغليظ، والمراد به هاهنا :غليظ الكلام؛ لقوله بعد ذلك: ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ أى: لو كنت سيِّئَ الكلام قاسى القلب عليهم لانفضوا عنك وتركوك، ولكن الله جمعهم عليك، وألان جانبك لهم تأليفا لقلوبهم، كما قال عبد الله بن عمرو: إنه رأى صفة رسول الله ﷺ فى الكتب المتقدمة: أنه ليس بفَظٍّ، ولا غليظ، ولا سَخّاب فى الأسواق، ولا يجزى بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح (١).

ولهذا قال تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾، ولذلك كان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه فى الأمر إذا حَدَث، تطييباً لقلوبهم؛ ليكونوا أنشط لهم فيما يفعلونه كما شاورهم يوم بدر فى الذهاب إلى العير، فقالوا: يا رسول الله، لو استعرضت بنا عُرْض البحر لقطعناه معك، ولو سرت بنا إلى بَرْك الغَمَاد لسرنا معك، ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن نقول: اذهب، فنحن معك وبين يديك وعن يمينك وعن شمالك (٢).

(١) إشارة إلى حديث المسند (٦٦٢٢). وقد مضى كاملا عند تفسير الآيات (١١٩ ـ ١٢٠) وبينا هناك أنه رواه البخارى أيضا.

(٢) هذا الحديث رواه الحافظ ابن كثير من حفظه بالمعنى ، لم يذكره على سبيل رواية معينة . فشطره الأول ثابت معناه من حديث أنس، فى المسند (١٢٠٤٧، ١٢٩٨٦ ، ١٣٣٣٠ ، ١٣٧٣٩) . وشطره الآخر ثابت معناه من حديث ابن مسعود، فى المسند (٣٦٩٨، ٤٠٧٠، ٤٣٧٦) . وتفصيل ذلك فى تاريخ ابن كثير (٣/ ٢٦٢ ـ ٢٦٤) و« برك الغماد»: موضع باليمن . ويجوز فتح الباء وكسرها ، وضم الغين وكسرها .

وشاورهم ـ أيضا ـ أين يكون المنزل؟ حتى أشار المنذر بن عمرو [المُعْنِق ليموتَ]، بالتقدم أمام القوم(١) ، وشاورهم فى أحد فى أن يقعد فى المدينة أو يخرج إلى العدو، فأشار جمهُورُهم بالخروج إليهم، فخرج إليهم. وشاورهم يوم الخندق فى مصالحة الأحزاب بثلث ثمار المدينة عامئذ، فأبى عليه ذلك السَّعْدَان: سعدُ بن معاذ وسعدُ بن عُبَادة، فترك ذلك. وشاورهم يومَ الحُدَيبية فى أن يميل على ذَرَارى المشركين، فقال له الصديق: إنا لم نجئ لقتال أحد، وإنما جئنا معتمرين، فأجابه إلى ما قال. وقال عليه السلام فى قصة الإفك: «أشيروا عَلَىَّ مَعْشَرَ الْمُسْلمينَ فى قَوْمٍ أبَنُوا أهلى ورَمَوهُم، وايْمُ الله مَا عَلمْتُ عَلَى أهْلِى مِنْ سُوء، وأبَنُوهم بِمَنْ ـ والله ـ مَا عَلِمْتُ [عَلَيْه](٢) إلاَّ خَيْرًا». واستشار عليا وأسامة فى فراق عائشة. فكان يشاورهم فى الحروب ونحوها. وقد اختلف الفقهاء: هل كان ذلك واجبا عليه أو من باب الندب تطييبا لقلوبهم ؟ على قولين.

وقد روى الحاكم عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ قال: أبو بكر وعمر، ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه(٣). وقد روى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن غَنْم، أن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر وعمر: «لو اجتمعتما فِى مَشُورَةٍ مَا خَالَفْتُكُمَا»(٤). وروى ابن ماجه عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ: «الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ». ورواه أبو داود والترمذى، وحسّنه والنسائى بأبسط من هذا(٥).

ثم روى ابن ماجه عن أبى مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ». تفرد به(٦).

(١) « المعنق » : بضم الميم وسكون العين وكسر النون . والمنذر هذا : من الخزرج ، شهد بدرًا وأحدًا . وقتل شهيدًا يوم بئر معونة . قال ابن سعد (٣ / ٢ / ١٠٠ ، ١٠١) : « وقال رسول الله ﷺ : أعتق المنذر ليموت . ويقول : مشى إلى الموت وهو يعرفه » .

(٢) هو جزء من حديث طويل، رواه البخارى (٤٧٥٠) ومسلم (٥٨ التوبة) والترمذى (٣١٨٠). وهو فى المسند (٦/ ٥٩). وكلمة [عليه] ليست فى المطبوع من «عمدة التفسير» وكذا المخطوطة الأزهرية، وأثبتناها من مصادر التخريج (الباز).

(٣) الحاكم (٣/ ٧٠) ووافقه الذهبى على شرط الشيخين . (٤) المسند (٤/ ٢٢٧ حلبى) . وإسناده صحيح .

(٥) ابن ماجه (٣٧٤٥) والترمذى (٤ / ٢٥ ، ٢٦) ، ولم يذكر تحسينه الذى نقله الحافظ ابن كثير . ولكن رواه الترمذى ـ من هذا الوجه ـ قبل ذلك، ضمن قصة مطولة (٣/ ٢٧٤ ـ ٢٧٦) ، وقال: « حسن صحيح غريب » .

(٦) ابن ماجه (٣٧٤٦) . وقال البوصيرى فى زوائده : « إسناد حديث أبى مسعود صحيح ، رجاله ثقات » . وكذلك رواه أحمد فى المسند (٥/ ٢٧٤ حلبى) . وأبو مسعود : هو البدرى الأنصارى . ووقع هنا فى المخطوطة والمطبوعة « ابن مسعود » . وهو خطأ واضح .

وهذه الآية (وشاورهم فى الأمر) ، والآية الأخرى : ﴿ وأمْرُهُمْ شُورَىٰ بيْنَهُم ﴾ [الشورى : ٣٨] ، اتخذهما اللاعبون بالدين فى هذا العصر ـ من العلماء وغيرهم ـ عدتهم فى التضليل بالتأويل ، ليواطئوا صنع الإفرنج فى منهج النظام الدستورى الذى يزعمونه ، والذى يخدعون الناس بتسميته « النظام الديمقراطى » ! فاصطنع هؤلاء اللاعبون شعاراً من هاتين الآيتين ، يخدعون به الشعوب الإسلامية أو المنتسبة للإسلام . يقولون كلمة حق يراد بها الباطل : يقولون : « الإسلام يأمر بالشورى » ، ونحو ذلك من الألفاظ.

وحقًا إن الإسلام يأمر بالشورى ، ولكن أى شورى يأمر بها الإسلام؟ إن الله سبحانه يقول لرسوله ﷺ : ﴿وشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فإذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ ومعنى الآية واضح صريح ، لا يحتاج إلى تفسير ، ولا يحتمل التأويل . فهو أمر للرسول ﷺ ، ثم لمن يكون ولى الأمر من بعده: أن يستعرض آراء أصحابه الذين يراهم موضع الرأى، الذى هم أولو الأحلام والنهى ، فى المسائل التى تكون موضع تبادل الآراء وموضع الاجتهاد فى التطبيق . ثم يختار من بينها ما يراه حقا أو صوابًا أو مصلحة ، فيعزم على إنفاذه غير متقيد برأى فريق معين، ولا برأى عدد محدود ، لا برأى أكثرية، ولا برأى أقلية ، فإذا عزم توكل على الله ، وأنفذ العزم على ما ارتآه .

ومن المفهوم البديهى الذى لا يحتاج إلى دليل : أن الذين أمر الرسول بمشاورتهم ـ ويأتسى به فيه من يلى الأمر من بعده ـ هم الرجال الصالحون القائمون على حدود الله ، المتقون لله ، المقيمو الصلاة ، المؤدو الزكاة ، المجاهدون فى سبيل الله، الذين قال فيهم رسول الله ﷺ : «ليلنى منكم أولو الأحلام والنهى». ليسوا هم الملحدين، ولا المحاربين =

obeikandi.com

وقوله: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أى: إذا شاورتهم فى الأمر وعزَمْت عليه فتوكل على الله فيه ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

وقوله: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ﴾ وهذا كما تقدم من قوله: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، ثم أمرهم بالتوكل عليه فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: ما ينبغى لنبى أن يخون. وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: فقدوا قطيفة يوم بدر، فقالوا: لعل رسول الله ﷺ أخذها، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ أى: يخون. ورواه أبو داود، والترمذى والطبرى. وقال الترمذى: حسن غريب. ورواه بعضهم مرسلا. وروى من غير وجه عن ابن عباس نحو ما تقدم. وهذه تبرئة له، صلوات الله وسلامه عليه، عن جميع وجوه الخيانة فى أداء الأمانة وقسم الغنيمة وغير ذلك.

وقرأ الحسن البصرى وطاوس، ومجاهد، والضحاك: ﴿أَن يُغَلَّ﴾ بضم الياء أى: يخان. وحكى عن بعضهم أنه فسر هذه القراءة بمعنى: يُتَّهم بالخيانة (١).

ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾: وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد. وقد وردت السنة بالنهى عن ذلك أيضا فى أحاديث متعددة: روى الإمام أحمد عن أبى مالك الأشجعى، عن النبى ﷺ قال: «أَعْظَمُ الْغُلُولِ عِنْدَ اللهِ ذِراعٌ مِنَ الأَرْضِ: تَجِدُونَ الرَّجُلَيْنِ جَارَيْنِ فى الأَرْضِ ـ أو فِى الدَّارِ ـ فَيَقْطَعُ أَحَدُهُمَا مِنْ حَظِّ صَاحِبِهِ ذِراعًا، فَإِذَا اقْتَطَعَهُ طُوِّقَهُ مِنْ سَبعِ أَرضِينَ إلى [يَوْمِ الْقِيَامَة] » (٢).

وروى أيضا عن الْمُسْتَوْرِد بن شَدَّاد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « مَن وَلِى لَنَا عَمَلاً وَلَيْسَ لَهُ مَنْزِلٌ فَلْيَتَّخِذْ مَنْزِلاً، أَوْ لَيْسَتْ لَهُ زَوْجَةٌ فَلْيَتَزَوَّجْ، أَوْ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ فَلْيَتَّخِذْ خَادِمًا، أَوْ ليس لَهُ دَابَّةٌ فَلْيَتَّخِذْ دَابَّةً، وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا سِوَى ذَلِكَ فهو غَالٌّ » ورواه أبو داود بنحوه (٣).

وروى ابن جرير عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ « لا أَعْرِفَنَّ أَحَدَكُمْ يَأْتِى يَوْمَ الْقِيَامَة

= لدين الله، ولا الفجار الذين لا يتورعون عن منكر، ولا الذين يزعمون أن لهم أن يضعوا شرائع وقوانين تخالف دين الله، وتهدم شريعة الإسلام. هؤلاء وأولئك ـ من بين كافر وفاسق ـ موضعهم الصحيح تحت السيف أو السوط، لا موضع الاستشارة وتبادل الآراء.

والآية الأخرى، آية سورة الشورى ـ كمثل هذه الآية وضوحًا وبيانا صراحة: ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الشورى: ٣٨]. ثم هى ما كانت خاصة بطرق الحكم وأنظمة الدولة. إنما هى فى خلق المؤمنين الطائعين المتبعين أمر ربهم أن من خلقهم أن يتشاوروا فى شؤونهم الخاصة والعامة، ليكون ديدنهم التعاون والتساند فى شأنهم كله.

ومجال القول ذو سعة. وفيما قلنا عبرة وعظة وكفاية، إن شاء الله.

(١) القراءة الأولى ـ بفتح الياء ـ قراءة ابن كثير وأبى عمرو وعاصم، والقراءة الثانية ـ بضم الياء ـ قراءة باقى السبعة.

(٢) المسند (١٧٣٢١). وإسناده صحيح.

(٣) المسند (٤/٢٢٩ حلبى) وأبو داود (٢٩٤٥) والمنذرى (٢٨٢٥).

obeikandi.com

يَحْمِلُ شَاةً لَهَا ثُغَاءٌ، ينادى: يَا مُحَمَّدُ، يا محمد، فَأَقُولُ: لاَ أَمْلكُ لَكَ مِنَ الله شَيْئًا، قَدْ بَلَّغْتُكَ. ولا أعْرِفَنَّ أحَدَكُمْ يأْتى يوْمَ الْقِيَامَة يَحْملُ جَملاً لَهُ رُغاءٌ، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ، يَا مُحَمَّدُ. فَأقُولُ: لاَ أَمْلكُ لَكَ من الله شَيْئًا ، قَدْ بَلَّغْتُكَ . [وَلاَ أعْرِفَنَّ أحَدكمْ يَأْتى يَوْمَ الْقِيَامَة يَحْمِلُ فرَسًا لَهُ حَمْحَمَةٌ ، يُنَادى : يَا مُحَمَّدُ ، يَا مُحَمَّدُ . فَأَقُولُ : لاَ أَمْلكُ لَكَ مِنَ الله شَيْئًا، قَد بَلَّغْتُكَ] . وَلاَ أعْرِفَنَّ أحَدَكُمْ يَأْتى يَوْمَ الْقِيَامَة يَحْملُ قشْعا من أدَم، يُنَادى: يَا مُحَمَّدُ، يَا مُحَمَّدُ. فأقُولُ: لاَ أَمْلكُ لَكَ مِنَ الله شَيْئًا، قَدْ بَلَّغْتُكَ». ولم يروه أحدٌ من أصحاب الكتب الستة(١) . وروى الإمام أحمد عن أبى حميد الساعدى قال: استعمل رسولُ الله ﷺ رَجُلاً من الأزْد يقال له: ابن اللُّتْبِيَّة على الصدقة، فجاء فقال: هذا لكم وهذا أهدى لى! فقام رسولُ الله ﷺ على المنبر فقال: «مَا بَالُ الْعَاملُ نَبْعثُهُ فَيَقُولُ: هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدى لى؟! أفَلاَ جَلَسَ فى بَيْت أبيه وأُمِّه فَيَنْظُرَ أيُهْدَى إلَيْه أمْ لاَ؟! والَّذى نَفْسُ مُحَمَّد بيَده ، لاَ يَأْتى أحَدٌ منْكُمْ منها بِشَىء إلا جَاءَ به يَوْمَ الْقيَامَة عَلَى رقَبَته إن كان بَعيرًا لَهُ رُغَاءٌ، أوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ، أوْ شَاةً تَيْعَرُ» ثم رفع يديه حتى رأينا عُفْرَةَ إبْطَيْه ثم قال: «اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ ؟ » ثلاثا أخرجاه(٢) . وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة، قال: قام فينا رسول الله ﷺ يوماً، فذكر الغُلُول فعظَّمه وعظَّم أمره، ثم قال: «لاَ أُلْفيَنَّ أحَدَكُمْ يَجىءُ يَوْمَ الْقيَامَة عَلَى رَقَبَته بعيرٌ لَهُ رُغَاءٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ الله، أغثْنى. فَأقُولُ: لاَ أمْلكُ لَكَ مِنَ الله شيئاً، قَدْ أبْلَغْتُكَ. [لاَ أُلْفيَنَّ أحَدَكُمْ يَجىءُ يَوْمَ الْقيَامَة عَلَى رَقَبَته فَرَسٌ لَهَا حَمْحَمَةٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ الله، أغثْنى. فَأقُولُ: لاَ أمْلكُ لَكَ مِنَ الله شَيْئاً، قَدْ أبْلَغْتُكَ. لاَ أُلْفيَنَّ أحَدَكُمْ يَجىءُ يَوْمَ الْقيَامَة عَلَى رَقَبَته رِقَاعٌ تَخْفقُ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ الله، أغثْنى، فَأقُولُ: لاَ أمْلكُ لَكَ منَ الله شَيْئاً، قَدْ أبْلَغْتُكَ] ، لاَ أُلْفيَنَّ أحَدَكُمْ يَجىءُ يَوْمَ الْقيَامَة عَلَى رَقَبَته صَامتٌ فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ الله أغثْنى. فَأقُولُ: لاَ أمْلكُ لَكَ منَ الله شَيْئاً، قَدْ أبْلَغْتُكَ » أخرجاه(٣) . وروى الإمام أحمد عن عدىّ ابن عُميرة الكندى قال: قال رسول الله ﷺ : « يَأيُّهَا النَّاسُ ، مَنْ عَملَ لَنَا منْكُمْ عملا ، فكتَمنَا مخيَطا فَمَا فَوْقَهُ فَهُوَ غُلٌّ يَأْتى به يَوْمَ الْقيَامَة » . قال : فقام رجل من الأنصار أسود ، كأنى أنظر إليه، فقال : يا رسول الله ، اقبل عنى عملك . قال : « وَمَا ذَاكَ ؟ » قال : سمعتك تقول كذا وكذا . قال : « وَأنَا أقُولُ ذَاكَ الآنَ: مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ عَلَى عَمَلٍ فَلْيَجئْ بقَليله وكَثيره، فَمَا أُوتىَ منْهُ أخَذَهُ. وَمَا نُهىَ عَنْهُ انْتَهَى». وكذا رواه مسلم، وأبو داود(٤) . وعن عَمرو بن شُعَيب، عن أبيه، عن جدّه قال: قال رسول الله ﷺ : «رُدُّوا الْخيَاطَ وَالْمخْيَطَ، فَإنَّ الْغُلُولَ عَارٌ وَنَارٌ وَشَنَارٌ عَلَى أهْله يَوْمَ الْقيَامَة»(٥) . وروى الإمام أحمد عن عُمَر بن

---

(١) الطبرى (٨١٥٨) وإسناده صحيح . ولم يروه أيضا الإمام أحمد فى المسند . والزيادة من المخطوطة الأزهرية والطبرى . وقوله: « لا أعرفن »: كلمة تقال عند التهديد والوعيد والزجر الشديد . وثبتت فى المطبوع: « لاعرفن»! وهو خطأ . و« الثغاء » : صوت الشاة . و « الرغاء » : صوت الإبل . و« القشع » ـ بكسر القاف وسكون الشين المعجمة: هو الجلد الخلق . و « الأدم » : جمع أديم . وهو الجلد . وثبت فى المطبوعة « قسما من أدم » ! وهو تخليط .

(٢) المسند (٥/ ٤٢٣ ، ٤٢٤ حلبى) والبخارى (١٣/ ١٤٤ ـ ١٤٦ فتح) ومسلم (٢/ ٨٣، ٨٤) ورواه الطبرى أيضا (٨١٥٩ ـ ٨١٦١) .

(٣) المسند (٩٤٩٩) . والزيادة منه ومن المخطوطة الأزهرية . وفى المسند زيادة أخرى لم يذكرها ابن كثير ، وهو فى البخارى (٦/ ١٢٩ فتح) ومسلم (٢/ ٨٣) . ورواه أيضا الطبرى (٨١٥٥ ـ ٨١٥٧) .

(٤) المسند (٤/ ١٩٢ حلبى) ومسلم (٢/ ٨٤ ، ٨٥) .

(٥) هكذا ذكره الحافظ ابن كثير ، دون نسبة ، وهو ـ بمعناه ـ جزء من حديث طويل ، رواه أحمد فى المسند (٦٧٢٩) ، وإسناده صحيح . وفصلنا تخريجه هناك وفى الاستدراك (٣٠١٣) .

الخطاب قال: لما كان يومُ خَيْبَر أقبل نَفَر من أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: فلان شهيد، وفلان شهيد. حتى أتوا على رجل فقالوا: فلان شهيد، فقال رسول الله ﷺ : «كَلاَّ، إنِّى رَأَيْتُهُ فى النَّار فى بُرْدَة غَلَّهَا ـ أو عَبَاءَة». ثم قال رسول الله ﷺ : « اذْهَبْ فَنَادِ فِى النَّاسِ: إنَّه لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إلا الْمُؤْمِنونَ » . قال : فناديت : إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون . وكذا رواه مسلم ، والترمذى . وقال الترمذى : حسن صحيح [١] .

وروى أبو داود عن عبد الله بن عمرو ، قال : كان رسول الله ﷺ إذا غنم غنيمة أمر بلالا فينادى فى الناس، فَيَجيئُون بغنائمهم ، فيخمسه ويُقسمه ، فجاء رجل يوما بعد النداء بزمام من شَعَر فقال : يا رسول الله، هذا كان مما أصبناه من الغنيمة. فقال: «أسَمِعْتَ بِلاَلاً يُنَادى ثلاثا؟»، قال: نعم. قال: «فَمَا مَنَعَكَ أنْ تَجِىء به؟» فاعتذر إليه، فقال: «كَلاَّ، أنْتَ تَجِىءُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَة، فَلَنْ أقْبَلَهُ مِنْكَ» [٢].

وقوله: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أى: لا يستوى من اتبع رضوان الله فيما شرعه، فاستحق رضوان الله وجزيل ثوابه وأُجير من وَبيل عقابه، ومن استحق غضب الله وألزم به، فلا محيد له عنه، ومأواه يوم القيامة جهنم وبئس المصير. وهذه الآية لها نظائر كثيرة فى القرآن كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ [الرعد: ١٩] وقوله: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص: ٦١].

ثم قال: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ﴾. قال الحسن البصرى ومحمد بن إسحاق: يعنى: أهل الخير وأهل الشر درجات، وقال أبو عبيدة والكسائى: منازل، يعنى: يتفاوتون فى منازلهم ودرجاتهم فى الجنة ودركاتهم فى النار، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ الآية [الأنعام: ١٣٢]؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أى: وسيُوفيهم إياها، لا يظلمهم خيرا ولا يزيدهم شرا، بل يجازى كلا بعمله.

وقوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أى: من جنسهم ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع به، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [الروم: ٢١] أى: من جنسكم، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، فهذا أبلغ فى الامتنان أن يكون الرسول إليهم منهم، بحيث يمكنهم مخاطبته ومراجعته فى فَهْم الكلام عنه، ولهذا قال: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ يعنى: القرآن ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أى: يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ليزكوا نفوسهم وتطهر من الدَّنَس والخَبَث الذى كانوا متلبسين به فى حال شركهم وجاهليتهم ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ يعنى: القرآن والسنة ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ﴾ أى: من قبل هذا الرسول ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أى: لفى غَىّ وجهل ظاهر جلىّ بَيّن لكُل أحد.

---

(١) المسند (٢٠٣ ، ٣٢٨) ومسلم (١/ ٤٣) .

(٢) أبو داود (٢٧١٢) . ورواه أيضا أحمد فى المسند (٦٩٩٦) وابن حبان فى صحيحه (٧ / ١٤٧ من مخطوطة الإحسان) والحاكم (٢/ ١٣٩) وصححه . ووقع اسم الصحابى فى مختصر المنذرى (٢٥٩٧) ، والمستدرك « عبد الله بن عمر » . وهو خطأ، وثبت على الصواب فى أبى داود ومخطوط الذهبى باختصار المستدرك . ثم قد سها الحافظ ابن كثير ـ هنا ـ فذكر اسم الصحابى «سمرة بن جندب»! هكذا ثبت فى المخطوطة والمطبوعة ولعل الحافظ كتبه من حفظه ـ رحمه الله.

﴿ أَوَ لَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَابَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾: وهى ما أصيب منهم يوم أُحد من قتل السبعين منهم ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾. يعنى: يوم بَدْر، فإنهم قتلوا من المشركين سبعين قتيلا وأسروا سبعين أسيرا ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا﴾ أى: من أين جرى علينا هذا؟ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾. روى ابن أبى حاتم عن عُمَر بن الخطاب قال: لما كان يومُ أحد من العام المقبل، عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء، فقتل منهم سبعون، وفرَّ أصحاب رسول الله ﷺ عنه، وكُسرت رَبَاعيتُهُ وهُشمَت البَيْضَة على رأسه، وسال الدم على وجهه، فأنزل الله عز وجل: ﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ بأخذكم الفداء. وهكذا رواه الإمام أحمد ولكن بأطول منه (١) ، وكذا قال الحسن البصرى. وقال محمد بن إسحاق، وابن جريج، والربيع بن أنس، والسدىّ : ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ أى: بسبب عصيانكم لرسول الله ﷺ حين أمركم أن لا تبرحوا من مكانكم فعصيتم، يعنى بذلك الرماة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أى: ويفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا مُعَقِّبَ لحكمه.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أى: فراركم بين يدى عدوكم وقتلهم لجماعة منكم وجراحتهم لآخرين ـ كان بقضاء الله وقدره، وله الحكمة فى ذلك. [وقوله]: ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَتَّبَعْنَاكُمْ﴾ يعنى بذلك أصحاب عبد الله بن أبى ابن سلول الذين رجعوا معه فى أثناء الطريق، فاتبعهم من اتبعهم من المؤمنين يحرضونهم على الإياب والقتال والمساعدة؛ ولهذا قال: ﴿أَوِ ادْفَعُوا﴾. قال ابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جُبَير يعنى كَثروا سواد المسلمين. فتعلَّلوا قائلين: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَتَّبَعْنَاكُمْ﴾ قال مجاهد: يعنون : لو نعلم أنكم تلقون حربا لجئناكم، ولكن لا تلقون قتالا.

[روى ابن إسحاق عن جماعة من التابعين ، قالوا :] خَرَجَ رسول الله ﷺ ـ يعنى حين خرج إلى أحد ـ فى ألف رجل من أصحابه، حتى إذا كان بالشَّوط ـ بين أحد والمدينة ـ انحاز عنه عبد الله بن أبى بن سلول بثلث الناس، فقال: أطاعهم فخرج وعصانى ! ووالله ما ندرى علام نقتُل أنفسنا هاهنا أيها الناس!! فرجع بمن اتبعه من الناس من قومه من أهل النفاق وأهل الريب، واتبعهم عبد الله بن عَمرو بن حَرَام أخو بنى سَلمة، يقول: يا قوم، أذكركم الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم عندما حضر من عدوكم، قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ولكنا لا نرى أن يكون قتال. فلما استعصوا عليه وأبَوْا إلا الانصراف عنهم ، قال : أبعدكم الله أعداء الله ، فسيُغْنى الله عنكم . ومضى رسول الله ﷺ (٢).

(١) هو جزء من حديث طويل فى المسند (٢٠٨) . وسيذكره الحافظ ابن كثير عند تفسير الآيتين (٩، ١٠) من سورة الأنفال ، وينسبه لمسلم وغيره .

(٢) هذا حديث مرسل . رواه الطبرى (٨١٩٣) .

قال الله تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ﴾: استدلوا به على أن الشخص قد تتقلب به الأحوال، فيكون فى حال أقرب إلى الكفر، وفى حال أقرب إلى الإيمان.

ثم قال: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يعنى: أنهم يقولون القول ولا يعتقدون صحته، ومنه قولهم هذا: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ﴾ فإنهم يتحققون أن جندا من المشركين قد جاءوا من بلاد بعيدة، يتحرقون على المسلمين بسبب ما أصيب من سراتهم يوم بدر، وهم أضعاف المسلمين ـ أنه كائن بينهم قتال لا محالة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾.

وقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ أى: لو سمعوا من مشورتنا عليهم فى القعود وعدم الخروج ما قتلوا مع من قتل. قال الله تعالى: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى: إن كان القُعود يَسْلَم به الشخص من القتل والموت، فينبغى، أنكم لا تموتون ، والموت لابد آت إليكم ولو كنتم فى بروج مُشَيَّدة، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين قال مجاهد، عن جابر بن عبد الله: نزلت هذه الآية فى عبد الله بن أبى ابن سلول.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ ربع

يخبر تعالى عن الشهداء بأنهم وإن قتلوا فى هذه الدار فإن أرواحَهم حية مرزوقة فى دار القرار. روى ابن جرير عن ابن إسحاق ابن أبى طلحة: حدثنى أنس بن مالك فى أصحاب رسول ﷺ الذين أرسلهم نبى الله ﷺ إلى أهل بئر معونة ، قال: لا أدرى أربعين أو سبعين. وعلى ذلك الماء عامر بن الطُّفَيل الجعفرى، فخرج أولئك النَّفَر من أصحاب رسول الله ﷺ ، حتى أتَوْا غارا مُشْرِفا على الماء فقعدوا فيه، ثم قال بعضهم لبعض: أيكم يُبَلِّغ رسالةَ رسول الله ﷺ [أهْلَ هذا الماء؟ فقال ـ أراه ابن ملْحان الأنصارى ـ: أنا أبلغ رسالة رسول الله ﷺ] . فخَرَج حتى أتى حِوَاءً منهم فاختبأ أمام البيوت، ثم قال: يا أهل بئر مَعُونة، إنى رسولُ رسول الله إليكم: أنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، فآمنوا بالله ورسوله. فخرج إليه رَجُل من كِسْر البيت برُمْح فضربه فى جنبه حتى خرج من الشق الآخر. فقال: الله أكبر، فُزْتُ ورب الكعبة. فاتبعوا أثره حتى أتوا أصحابه فى الغار فقتلهم أجمعين عامرُ بن الطفيل . وقال إسحاق : حدثنى أنس بن مالك : أن الله أنزل فيهم قرآنا : (بَلِّغُوا عنا قَوْمَنا أنَّا قد لقينا ربَّنا فَرَضِى عَنَّا ورَضينا عَنْه) ، ثم نسخت فرفعت بعد ما قرأناه زَمَناً

وأنزل الله : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١). وقد روى مسلم عن مسروق قال: إنا سألنا عبد الله عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ فقال: أما إنَّا قد سألنا عن ذلك ؟ فقال: «أَرْوَاحُهُمْ فِى جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ لها قَنَادِيلُ بالعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأوى إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ اطِّلَاعَةً فَقَالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ فَقَالُوا: أىَّ شَىْءٍ نَشْتَهِى وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا؟ فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأوا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يَسْأَلُوا قَالُوا: يَارَبِّ، نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِى أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِى سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا»(٢).وقد روى نحوه من حديث أنس وأبى سعيد .

وروى الإمام أحمد عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «مَا مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ، لَهَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ، يَسُرُّهَا أَنْ تَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا إلا الشَّهِيدَ ،فَإِنَّهُ يَسُرُّهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ مَرَّةً أُخْرَى مما يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ» تفرد به مسلم (٣) .وروى البخارى عن جابر قال: لما قُتِل أبى جعلتُ أبكى وأكشفُ الثوب عن وجهه، فجعل أصحاب رسول الله ﷺ ينْهَونى،والنبى ﷺ لم ينْه، فقال النبى ﷺ : « لاَ تَبكيه ـ أو : مَا تَبْكِيه ـ مَا زَالَتِ الْملاَئِكَةُ تُظِلُّهُ بِأجْنِحَتِها حَتَّى رُفِعَ». ورواه مسلم والنسائى بنحوه . وروى الإمام أحمد عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ : «لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأُحُدٍ جَعَلَ اللهُ أَرْوَاحَهُمْ فِى أَجْوَافِ طَيْرٍ خُضْرٍ، تَرِدُ أَنهارَ الْجَنَّةِ، وَتَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا وَتَأْوِى إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ فِى ظِلِّ الْعَرْشِ، فَلَمَّا وَجَدُوا طِيبَ مَأكَلِهِمَ ومَشْرَبِهِمْ، وَحُسْنَ منقلبهم قَالُوا: يَا لَيْتَ إِخْوَانَنَا يَعْلَمُونَ مَا صَنَعَ اللهُ لَنا،لِئَلا يَزْهَدُوا فى الْجِهَادِ،وَلاَ يَنْكُلُوا عَنِ الْحَرْبِ» فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ. فأنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَؤُلاَءِ الآيَاتِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ وما بعدها» ورواه ابن جرير وأبو داود والحاكم(٤).روى الإمام أحمد عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ : «الشُّهَدَاءُ عَلَى بَارِقٍ،نهرٍ بِبَابِ الْجَنَّةِ، فى قُبَّةٍ خَضْرَاءَ، يَخْرُجُ عَلَيْهِمْ رِزْقُهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ بُكْرَةً وَعَشِيا» تفرد به أحمد ، وإسناده جيد ، ورواه الطبرى (٥).

---

(١) هذا الحديث رواه الطبرى فى التفسير (٨٢٢٤) ، والتاريخ (٣/ ٣٦) بإسناد واحد . وإسناده صحيح . وثبت لفظه فى مخطوطة ابن كثير ناقصًا ، وكذلك فى طبعة بولاق . والزيادة التى هنا زادها السيد رشيد رضا رحمه الله من تفسير الطبرى ، وبين ذلك بهامش طبعته . وهى ثابتة فى التاريخ أيضًا ، وقوله « حتى أتى حواء منهم » ـ « الحواء » بكسر الحاء وتخفيف الواو : جماعة بيوت الناس إذا تدانت ، وهى من الوبر . وقد ثبت بهذا اللفظ فى تاريخ الطبرى ، وهو أقرب للرسم الثابت فى مخطوطة ابن كثير . وفى تفسير الطبرى « حيًا منهم » ، وهو مقارب أيضًا وفى مطبوعة ابن كثير « حول بيتهم » ! وهو تصحيف .

وهذه القصة بهذا السياق لم أجدها عند غير الطبرى . ولكن معناها ثابت فى روايات كثيرة عن أنس . انظر المسند (١٢٤٢٩ ، ١٣٢٢٨ ، ١٤١١٩) والبخارى (٧ / ٢٩٧ ـ ٢٩٩) وطبقات ابن سعد (٣ / ٢ / ٧١ ـ ٧٢) . وتفصيل القصة فى تاريخ ابن كثير (٤ / ٧١ ـ ٧٤) .

(٢) صحيح مسلم (٢/٩٨) . وعبد الله : هو ابن مسعود . وقد مضى بمعناه عند تفسير الآيتين (١٥٣ ـ ١٥٤) من سورة البقرة منسوبا لمسلم .

(٣) المسند (١٢٣٠٠) ومسلم (٢/ ٩٦) .

(٤) المسند (٢٣٨٨، ٢٣٨٩) وأبو داود (٢٥٢٠) والطبرى (٨٢٠٥) والحاكم (٢/ ٢٩٧، ٢٩٨) وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبى .

(٥) المسند (٢٣٩٠) والطبرى (٢٣٢٣ ، ٨٢٠٩ ـ ٨٢١٣) ورواه أيضا ابن حبان فى صحيحه (٧ / ٦٩ مخطوطة الإحسان) والحاكم (٢/ ٧٤) وصححه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى .

وكأن الشهداء أقسام: منهم من تسرح أرواحهم فى الجنة، ومنهم من يكون على هذا النهر بباب الجنة، وقد يحتمل أن يكون منتهى سيرهم إلى هذا النهر ، فيجتمعون هنالك، ويغدى عليهم برزقهم هناك ويراح، والله أعلم.

وقد روينا فى مسند الإمام أحمد حديثا فيه البشارة لكل مؤمن بأن روحه تكون فى الجنة تسرح أيضا فيها، وتأكل من ثمارها، وترى ما فيها من النضرة والسرور، وتشاهد ما أعده الله لها من الكرامة. وهو بإسناد صحيح عزيز عظيم، اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة؛ فإن الإمام أحمد رواه عن محمد بن إدريس الشافعى، عن مالك بن أنس الأصبحى، عن الزهرى، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ : «نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يَعْلَق فى شَجرِ الْجَنَّةِ، حتى يُرْجِعَهُ اللهُ إلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ»[1]. قوله: «يعلق»، أى: يأكل. وفى هذا الحديث: أن روح المؤمن تكون على شكل طائر فى الجنة. وأما أرواح الشهداء، فكما تقدم فى حواصل طير خضر، فهى كالكواكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين ، فإنها تطير بأنفسها ، فنسأل الله الكريم المنان أن يميتنا على الإيمان.

وقوله: ﴿فرحِينَ بما آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فضْلِهِ ويَسْتَبْشرُونَ بِالَّذينَ لَمْ يَلْحقُوا بهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. أى: الشهداء الذين قتلوا فى سبيل الله أحياء عند الله، وهم فَرحون بما هم فيه من النعمة والغبطة، ويستبشرون بإخوانهم الذين يقتلون بعدهم فى سبيل الله: أنهم يَقْدمون عليهم، وأنهم لا يخافون مما أمامهم ولا يحزنون على ما تركوه وراءهم نسأل الله الجنة. وقد ثبت فى الصحيحين عن أنس فى قصة أصحاب بئر مَعُونة السبعين من الأنصار، الذين قتلوا فى غداة واحدة : وقَنَت رسول الله ﷺ يدعو على الذين قتلوهم، يدعو عليهم ويَلْعَنهم، قال أنس: ونزل فيه قرآن قرأناه حتى رفع: «أنْ بَلغُوا عَنَّا قَوْمَنا أنَّا لقينَا رَبَّنا فَرَضِىَ عَنَّا وأرْضَانا ».

ثم قال: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: قال محمد بن إسحاق: استبشروا وسُرّوا لما عاينوا من وفاء الموعود وجزيل الثواب . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هذه الآية جمعت المؤمنين كلهم، سواء الشهداء وغيرهم، وقلَّما ذكر الله فضلا ذكر به الأنبياء وثوابا أعطاهم، إلا ذكر ما أعطى الله المؤمنين من بعدهم.

وقوله: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾: هذا كان يوم «حمراء الأسد»، وذلك أن المشركين لما أصابوا ما أصابوا من المسلمين كرُّوا راجعين إلى بلادهم، فلما استمروا فى سيرهم تَنَدَّمُوا لم لا تَمَّموا على أهل المدينة وجعلوها الفيصلة! فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ ندب المسلمين إلى الذّهاب وراءهم ليُرْعِبَهم ويريهم أن بهم قَوّةً وجلدا، ولم يأذنْ لأحد سوى من حضر الوقعة يوم أحد، سوى جابر بن عبد الله ـ لما سنذكره ـ فانتدب المسلمون على ما بهم من الجراح والإثخان ، طاعة لله ولرسوله ﷺ . وقال محمد بن إسحاق : كان يوم أحد يوم السبت للنصف من شوال ، فلما كان الغد من يوم الأحد لستّ عشرةَ ليلة مضت من شوال، أذن مؤذن رسول الله ﷺ فى الناس بطلب العدو ، وأذن مؤذنه ألا يخرجنَّ معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس. فكلمه جابر بن عبد الله بن عَمْرو بن

---

(١) مضى هذا الحديث عند تفسير الآيتين : (١٥٣ ، ١٥٤) من سورة البقرة .

حرام، فقال: يا رسول الله، إن أبى كان خَلَّفنى على أخوات لى سَبْع،وقال: يا بُنَىّ، إنه لا ينبغى لى ولا لك أن نترك هؤلاء النّسوةَ لا رجلَ فيهن، ولست بالذى أوثرك بالجهاد مع رسول الله ﷺ على نفسى، فتخلّف على أخواتك، فتخلفت عليهن، فأذن له رسول الله ﷺ ، فخرج معه. وإنما خرج رسول الله مُرْهبا للعدو، وليبلغهم أنه خرج فى طلبهم ليظنوا به قوةً، وأن الذى أصابهم لم يُوهنْهم عن عدوهم. قال ابن إسحاق: فحدثنى عبد الله بن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أبى السائب مولى عائشة بنت عثمان؛أن رجلا من أصحاب رَسُول الله ﷺ من بنى عبد الأشهل ـ كان شَهد أحدا ـ قال: شهدنا أحدا مع رسول الله ﷺ أنا وأخٌ لى، فرجعنا جريحين،فلما أذّن مُؤذّن رسول الله ﷺ بالخروج فى طلب العدوّ، قلتُ لأخى ـ أو قال : أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ ؟ والله ما لنا من دابّة نركبها، وما منّا إلا جريح ثَقيل،فخرجنا مع رسول الله ﷺ ، وكنت أيسر جراحا منه، فكان إذا غُلب حملته عُقْبة، ومشى عُقْبة حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون . وروى البخارى عن عائشة : ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ، قالت لعروة : يا بن أختى، كان أبواك منهم الزبير وأبو بكر، لمّا أصاب نبى الله ﷺ ما أصاب يوم أحد، وانصرف عنه المشركون، خاف أن يرجعوا، فقال: «مَنْ يَرْجِعُ فِى أثرهم ؟» فانتدبَ منهم سبعون رجلا ، فيهم أبو بكر والزبير ورواه الحاكم ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. كذا قال ! ورواه ابن ماجه وسعيد بن منصور وأبو بكر الحميدى(١) .

وقوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾أى: الذين توعدهم الناس بالجموع وخوفوهم بكثرة الأعداء، فما اكترثوا لذلك، بل توكلوا على الله واستعانوا به ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ . وروى البخارى عن ابن عباس: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾: قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلْقى فى النار ، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ ورواه النسائى . والعجب أن الحاكم رواه ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه! (٢) .

وقد روى الإمام أحمد عن عوف بن مالك: أن النبى ﷺ قَضى بين رجلين ، فقال المقضى عليه لما أدبر: حسبى الله ونعم الوكيل. فقال النبى ﷺ : «رُدُّوا عَلَىَّ الرَّجُلَ». فقال: «ما قلت؟». قال: قلتُ: حسبى الله ونعم الوكيل. فقال النبى ﷺ : «إِنَّ الله يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ، ولَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ، فَإِذَا غَلَبَكَ أمرٌ فَقُلْ: حَسْبِىَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ». وكذا رواه أبو داود والنسائى بنحوه (٣) . وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ : « كَيْفَ أَنْعَمُ وصَاحِبُ القَرْن قَد الْتقم القَرْنَ وحَنَى جَبْهَتَهُ ، يستمع مَتَى يُؤْمَرُ فَيَنْفُخُ » . فقال أصحاب رسول الله ﷺ : فما نقول ؟ قال: «قُولُوا : حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا » . وقد روى هذا من غير وجه ، وهو حديث جيد (٤) . وروينا عن

---

(١) البخارى (٧ / ٢٨٧ فتح) والحاكم (٢/ ٢٩٨) . ورواه أيضا الطبرى بنحوه : (٨٢٣٩ ، ٨٢٤١) .

(٢) الفتح (٨ / ١٧٢) والحاكم (٢/ ٢٩٨) . والعجب أيضا أن الذهبى لم يتعقب فى استدراكه هذا الحديث ، وهو فى صحيح البخارى !

(٣) المسند (٦ / ٢٤ ، ٢٥حلبى) وإسناده صحيح . ورواه أيضا المزى فى تهذيب الكمال . (ص ٥٧١ مخطوط مصور) بإسناده .

(٤) المسند (٣٠١٠) وسيذكره الحافظ ابن كثير عند تفسير الآية: ٨ من سورة المدثر ، من رواية ابن أبى حاتم . ورواه الحاكم (٤/ ٥٥٩) .

أم المؤمنين عائشة وزينب بنت جحش أنهما تفاخرتا، فقالت زينب: زوجنى الله وزوجكن أهاليكن. وقالت عائشة: نزلت براءتى من السماء فى القرآن. فسلّمت لها زينب، ثم قالت: كيف قلت حين ركبت راحلة صفوان بن المعطّل؟ فقالت: قلت: حسبى الله ونعم الوكيل، فقالت زينب: قلت كلمة المؤمنين.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ أى: لما توكلوا على الله كفاهم ما أهمّهم ورد عنهم بأس من أراد كيدهم، فرجعوا إلى بلدهم ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ مما أضمر لهم عدوهم ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ أى: يخوفكم أولياءه، ويوهمكم أنهم ذوو بأس وذوو شدة، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أى: فإذا سول لكم فأوهمكم فتوكلوا علىّ والجؤوا إلىّ، فأنا كافيكم وناصركم عليهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾، إلى قوله: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٦ـ ٣٨]، وقال: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، وقال: ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ. يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢].

﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ۗ يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾، وذلك من شدة حرصه على الناس كان يحزنه مُبَادَرَة الكفار إلى المخالفة والعناد والشقاق، فقال تعالى: لا يحزنك ذلك ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ﴾ أى: حكمته فيهم أنه يريد بمشيئته وقدرته ألا يجعل لهم نصيبا فى الآخرة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ثم قال تعالى مخبرا عن ذلك إخبارا مقرراً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ أى: استبدلوا هذا بهذا ﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ أى: ولكن يضرون أنفسهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾، كقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦]، وكقوله: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٤٤]، وكقوله: ﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].

ثم قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أى: لابُد أن يعقد سببا من المحنة، يظهر فيه وليه، ويفتضح فيه عدوه. يُعرف به المؤمن الصابر، والمنافق الفاجر. يعنى بذلك يوم أحد الذى امتحن الله به المؤمنين، فظهر به إيمانهم وصبرهم وجلدهم وطاعتهم لله ولرسوله ﷺ، وهتك به ستر المنافقين، فظهر مخالفتهم ونُكُولهم عن الجهاد وخيانتهم لله ولرسوله . قال مجاهد: ميّز بينهم يوم أحد. وقال قتادة: مَيَّزَ بينهم بالجهاد والهجرة.

ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ أى: أنتم لا تعلمون غيبَ الله فى خلقه حتى يتميز لكم المؤمن من المنافق، لولا ما يعقده من الأسباب الكاشفة عن ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ ، كقوله تعالى: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

ثم قال: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أى: أطيعوا الله ورسوله واتبعوه فيما شرعه لكم ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

وقوله: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ أى: لا يحسبن البخيل أن جمعه المال ينفعه، بل هو مضرّة عليه فى دينه ـ وربما كان ـ وفى دنياه. ثم أخبر بمآل أمر ماله يوم القيامة فقال: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، روى البخارى عن أبى هُريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ آتاهُ الله مَالاً فلم يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ له شُجَاعاً أقرعَ له زبيبتان، يُطَوَّقُه يوم القيامة، يأخذ بلهْزِمَتَيْه ـ يعنى بشدقَيْه ـ يقول: أنا مَالُكَ، أنا كَنْزُكَ» ثم تلا هذه الآية: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ إلى آخر الآية. تفرد به البخارى دون مسلم ورواه ابن حبان (١).

وروى الإمام أحمد عن ابن عمر ، عن النبى ﷺ قال : « إن الَّذى لا يُؤَدِّى زَكَاةَ مَاله يُمثلُ اللهُ لَهُ مَالَه يَوْمَ القيامة شُجَاعًا أقْرَعَ لَهُ زَبِيبتَان ، ثم يُلْزِمهُ يطَوّقه ، يَقُول : أنَا كَنْزُكَ ، أنَا كَنْزُكَ » ورواه النسائى (٢). وروى الإمام أحمد عن عبد الله، عن النبى ﷺ؛ قال: «مَا مِنْ عَبْد لا يُؤَدِّى زَكَاةَ مَاله إلا جُعِلَ لَهُ شُجَاعٌ أقْرَعُ يَتْبعُه، يَفِرّ منه وهو يَتْبعُه فَيَقُولُ: أنا كَنْزُكَ». ثم قرأ عبد الله مصداقه من كتاب الله: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. رواه الترمذى والنسائى وابن ماجة، وقال الترمذى: حسن صحيح. رواه الحاكم ورواه ابن جرير من غير وجه، عن ابن مسعود، موقوفا (٣).

---

(١) البخارى (٨/ ١٧٣) ورواه أيضا (٣/ ٢١٤، ٢١٥) . ومعناه ثابت عن أبى هريرة ، فى المسند من أوجه كثيرة ، منها: (٧٧٤٢، ٨١٧٠ ، ٨٦٤٦ ، ٨٩٢٠) . ووهم المنذرى فى الترغيب (١/ ٢٦٩) ، إذ نسبه لصحيح مسلم و« الشجاع»: الحية الذكر.

(٢) المسند (٥٧٢٩) والنسائى (١/ ٣٤٣) وإسناداهما صحيحان .

(٣) المسند (٣٥٧٧) والترمذى (٤/ ٨٥) والحاكم (٢/ ٢٩٨، ٢٩٩) ولكن روايته موقوفة ، خلافا لما يوهمه كلام الحافظ ابن كثير هنا . والطبرى (٨٢٨٥ ـ ٨٢٨٩ ، ٨٢٩٢) ، ورواه ابن خزيمة فى صحيحه ، كما فى الترغيب (١/ ٢٦٨) .

وروى الحافظ أبو يعلى عن ثوبان، عن النبى ﷺ، قال: «مَنْ تَرَكَ بَعْدَهُ كَنْزًا مُثِّلَ لَهُ شُجَاعًا أقرَعَ [يومَ القِيَامَة]،لَهُ زَبِيبَتَان، يَتْبَعُه فيَقُولُ: مَنْ أنتَ؟ وَيْلَكَ ؟!. فيقُولُ: أنا كَنْزُكَ الَّذِى خَلَّفتَ بَعْدَكَ ، فَلاَ يَزَالُ يَتْبَعُهُ حَتَّى يُلْقِمَهَ يَدَه فَيَقْضِمَها، ثم يَتْبَعه سَائِر جَسَدِه». إسناده جيد قوى ولم يخرجوه.

وقوله: ﴿ولِلَّه مِيرَاثُ السَّمَوَات وَالأَرْضِ﴾ أى: فأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه، فإن الأمور كُلَّها مرجعها إلى الله عز وجل. فقدموا لكم من أموالكم ما ينفعكم يوم معادكم ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أى: بنياتكم وضمائركم.

﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٨٢) الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤) ﴾

عن ابن عباس قال: دخل أبو بكر الصديق، بيت المدراس، فوجد من يهود أناسا كثيراً قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له: فِنْحَاص ،وكان من علمائهم وأحبارهم، ومعه حَبْرٌ يقال له: أشْيَع. فقال أبو بكر: ويحك يا فِنْحَاص، اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله، قد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوباً عندكم فى التوراة والإنجيل، فقال فنحاص: والله ـ يا أبا بكر ـ ما بنا إلى الله من حاجة من فقر، وإنه إلينا لفقير! ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا! وإنا عنه لأغنياء، ولو كان عنا غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم! ينهاكم عن الربا ! فغضب أبو بكر، فضرب وجه فِنْحَاص ضرباً شديداً، وقال: والذى نفسى بيده، لولا الذى بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك يا عدو الله، فأكْذِبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد ، أبصر ما صنع بى صاحبك! فقال رسول الله ﷺ لأبى بكر: «ما حَمَلكَ على ما صَنَعْت؟» فقال: يا رسول الله، إن عَدُوَّ الله قد قال قولا عظيما، زَعَم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء! فلما قال ذلك غَضِبْتُ لله مما قال، فضربت وجهه، فجَحَد ذلك فنحاص وقال: ما قلتُ ذلك ، فأنزل الله فيما قال فنحاص ردا وتصديقاً لأبى بكر: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ الآية. رواه ابن أبى حاتم [١].

وقوله: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ تهديد ووعيد؛ ولهذا قرنه تعالى بقوله: ﴿وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أى: هذا قولهم فى الله، وهذه معاملتهم لرسل الله، وسيجزيهم الله على ذلك شَرَّ الجزاء؛ ولهذا قال : ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ. ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أى: يقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا وتحقيراً وتصغيراً.

وقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ يقول تعالى تكذيباً أيضاً لهؤلاء الذين زعموا أن الله عَهِدَ إليهم فى كتبهم ألا يؤمنوا برسول حتى يكون من معجزاته أن من تصدق بصدقة من أمته فقبلَتْ منه أن تنزل نار من السماء تأكلها . قال الله تعالى : ﴿ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ

(١) رواه أيضا الطبرى (٨٣٠٠) وإسناده جيد أو صحيح. وزاد السيوطى فى الدر المنثور (٢/١٠٥، ١٠٦) نسبته لابن المنذر.

﴿قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالحجج والبراهين ﴿وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾ أي: وبنار تأكل القرابين المتقبلة ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾ أي: فلم قابلتموهم بالتكذيب والمخالفة والمعاندة وقتلتموهم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنكم تتبعُونَ الحق وتنقادون للرسل ؟!.

ثم قال تعالى مسلياً لنبيه ﷺ: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أي: لا يوهنك تكذيب هؤلاء لك، فلك أسوة مَنْ قبلك من الرسل الذين كُذبوا مع ما جاؤوا به من البينات ،وهي الحجج والبراهين القاطعة ﴿وَالزُّبُرِ﴾ وهي الكتب المتلقاة من السماء، كالصحف المنزلة على المرسلين ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أي: البَين الواضح الجلي.

ربع

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾

يخبر تعالى إخباراً عاماً ،يعم جميع الخليقة ـ بأن كل نفس ذائقة الموت، كقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ. وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ فهو تعالى وحده هو الحي الذى لا يموت، والإنس والجن يموتون، وكذلك الملائكة وحملة العرش، وينفرد الواحد الأحد القهار بالديمومة والبقاء، فيكون آخراً كما كان أولا. وهذه الآية فيها تعزية لجميع الناس، فإنه لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت، فإذا انقضت المدة وفَرَغَت النطفة التى قدر الله وجودها من صلب آدم، وانتهت البرية ـ : أقام الله القيامة،وجازى الخلائق بأعمالها ،جليلها وحقيرها، كثيرها وقليلها، كبيرها وصغيرها، فلا يظلم أحدا مثقال ذرة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

وقوله: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ أي: من جُنِّب النار ونجا منها وأدخل الجنة، فقد فاز كل الفوز. وروى ابن أبى حاتم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَوْضِعُ سوط فى الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها، اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ ». هذا الحديث ثابت فى الصحيحين من غير هذا الوجه بدون هذه الزيادة ، وقد رواه بهذه الزيادة ابن حبان والحاكم [١]. وتقدم ما رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عَمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحَبَّ أن يزحزح عن النار وأن يدخل الجنة، فلتدركه مَنِيَّتُه وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، ولْيَأْتِ إلى الناس ما يُحِبُّ أن يؤتى إليه» [٢]

وقوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ تصغيرًا لشأن الدنيا، وتحقيرًا لأمرها، وأنها دنية فانية قليلة زائلة، كما قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى:١٦، ١٧] ، وقال : ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [القصص: ٦٠]، وفى الحديث: «والله ما الدنيا فى

(١) وكذلك رواه أحمد فى المسند (٩٦٤٩) والترمذى (٤/ ٨٥) والطبرى (٨٣١٥) وهو فى المستدرك (٢/ ٢٩٩) وصححه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى .

(٢) مضى فى عند تفسير الآيتين : (١٠٢ ، ١٠٣) من سورة آل عمران .

الآخرة إلا كما يَغْمِسُ أحدُكُم إصبعه فى اليَمّ، فلينظر بِمَ تَرْجِع إليه»[١] .

وقوله : ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ كقوله : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ . الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥، ١٥٦] أى: لابد أن يبتلى المؤمن فى شىء من ماله أو نفسه أو ولده أو أهله، ويبتلى المرء على قدر دينه، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى البلاء ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾، يقول تعالى للمؤمنين عند مَقْدمهم المدينَة قبل وقعة بدر، مسليا لهم عما نالهم من الأذى من أهل الكتاب والمشركين، وآمراً لهم بالصبر والصفح والعفو حتى يفرج الله، فقال: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ .

روى البخارى عن أسامة بن زيد: أن رسول الله ﷺ ركب على حمَار، عليه قطيفة فَدكيَّة ، وأردف أسامة بن زيد وراءه، يعود سَعْدَ بن عبادة فى بنى الحارث بن الخزرج، قَبْل وقعة بَدْر، قال: حتى مر بمجلس فيه عبد الله بن أبى ابن سَلُول، وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أبى، فإذا فى المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين، عَبَدَة الأوثان واليهود والمسلمين، وفى المجلس عبدُ الله بن رَوَاحة، فلما غَشَيَت المجلسَ عَجَاجةُ الدابة خمَّر عبد الله بن أبى أنفه بردائه وقال: «لا تُغَبِّروا علينا. فسلم رسول الله ﷺ ، ثـم وقـف، فـنزل فدعاهـم إلـى الله عز وجل، وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أَبَى: أيها المَرْء،إنه لا أحْسَنَ مما تقول، إن كان حقا ،فلا تؤذنا به فى مجالسنا، ارجع إلى رحلك، فمن جاءك فاقصص عليه. فقال عبد الله بن رواحة: بلى يا رسول الله، فَاغْشَنَا به فى مجالسنا ،فإنا نُحب ذلك. فاستَب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يَتَثَاورون ، فلم يزل النبى ﷺ يُخفضهم حتى سكتوا، ثم ركب النبى ﷺ دَابته، فسار حتى دخل على سعد بن عُبَادة، فقال له النبى ﷺ :«يا سعد،ألم تَسْمَعْ إلى ما قال أبو حُبَاب ؟ ـ يريد عبد الله بن أبى ـ قال كذا وكذا». فقال سعد: يا رسول الله، اعف عنه واصفح عنه ، فوالذى أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذى أنزل عليك، ولقد اصطلح أهل هذه البُحَيْرَة على أن يُتَوِّجوه فيعصِّبوه بالعصابة، فلما أبى الله ذلك بالحق الذى أعطاك الله شَرِقَ بذلك، فذلك الذى فَعَل به ما رأيتَ، فعفا عنه رسول الله ﷺ ، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب، كما أمرهم الله، ويصبرون على الأذى، قال الله تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ الآية [البقرة: ١٠٩]، وكان النبى ﷺ يَتَأَوّل فى العفو ما أمره الله به، حتى أذنَ الله له فيهم، فلما غزا رسولُ الله ﷺ بدراً، فقتل الله به صناديد كفار قريش، قال عبد الله بن أَبَىّ ابن سَلُول ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان: هذا أمر قد تَوَجّه، فبايعُوا الرسول ﷺ على الإسلام ، فبايَعوا وأسلموا [٢].

---

[١] رواه أحمد فى المسند (٤/ ٢٢٩ حلبى) ، من حديث المستورد بن شداد الفهرى . وبنحوه رواه مسلم (٢/ ٣٥٥) من حديثه .

[٢] البخارى (٨/ ١٧٣ ـ ١٧٥ فتح). وقوله: «على قطيف فدكية» : أى كساء غليظ منسوب إلى فدك ـ بفتح الفاء والدال، وهى بلد مشهور قريب من المدينة. وقوله: « البحيرة » : بالتصغير فى بعض روايات البخارى ، كما ثبت هنا. وفى بعضها : « البحرة » بالتكبير . قال الحافظ : وهذا اللفظ يطلق على القرية وعلى البلد ، والمراد به هنا : « المدينة المنورة » . وقوله : « شرق » ـ بفتح الشين المعجمة وكسر الراء ، أى : غص به . وهو كناية عن الحسد .

obeikandi.com

فكان من قام بحق، أو أمر بمعروف، أو نهى عن منكر، فلابد أن يؤذَى، فما له دواء إلا الصبر فى الله، والاستعانة بالله، والرجوع إلى الله.

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ ﴾

هذا توبيخ من الله وتهديد لأهل الكتاب، الذين أخَذ عليهم العهد على ألسنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ، وأن ينوهوا بذكره فى الناس ليكونوا على أهْبَة من أمره، فإذا أرسله الله تابعوه، فكتموا ذلك ، وتعوضوا عما وعدوا عليه من الخير فى الدنيا والآخرة بالدون الطفيف، والحظ الدنيوى السخيف، فبئست الصفقة صفقتهم، وبئست البيعة بيعتهم.

وفى هذا تَحْذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم ، ويُسْلَكَ بهم مَسْلَكهم ، فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع، الدال على العمل الصالح، ولا يكتموا منه شيئا، فقد ورد فى الحديث المروى من طرق متعددة عن النبى ﷺ أنه قال: «من سُئِل عن عِلْم فكتَمه أُلْجِم يوم القيامة بِلجَامٍ من نار»[١].

وقوله تعالى: ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ الآية، يعنى بذلك: المرائين المتكثرين بما لم يُعْطَوا، كما جاء فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ : «من ادَّعَى دَعْوى كاذبة لِيتكثَّر بها لم يَزِدْه الله إلا قِلَّة» . وفى الصحيح: «المتشبع بما لم يُعْطَ كلابس ثَوْبَى زُور»[٣]. وروى الإمام أحمد عن حُمَيْد بن عبد الرحمن بن عَوْف: أن مروان قال: اذهب يا رافع ـ لبَوَّابه ـ إلى ابن عباس، فقل : لئن كان كل امرئ منَّا فَرِح بما أَتَى، وأحب أن يحمد بما لم يفعل ـ معذَّباً، لنُعَذبن أجمعين ؟ فقال ابن عباس: ما لكم وهذه؟ إنما نزلت هذه فى أهل الكتاب، ثم تلا ابن عباس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ﴾ الآية ،وتلا ابن عباس: ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾. وقال ابن عباس: سألهم النبى ﷺ عن شىء، فكتموه إياه وأخبروه بغيره، فخرجوا قد أَرَوْه أن قد أخبروه بما سألهم عنه ، واستحمدوا بذلك إليه ، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم ما سألهم عنه. وهكذا رواه البخارى ، ومسلم، والترمذى ، والنسائى ، وابن أبى حاتم ، وابن خزيمة ، والحاكم ، وابن مَرْدُويه[٤]. وروى البخارى عن أبى سعيد الخدرى ؛ أن رجالا من المنافقين فى عهد

---

(١) المسند (٧٥٦١) من حديث أبى هريرة . وقد مضى عند تفسير الآية : (٥٩) من سورة البقرة وانظر المقاصد الحسنة للسخاوى (١١٣٥) .

(٢) هو جزء من حديث رواه مسلم (١/ ٤٢) ، من حديث ثابت بن الضحاك . وقد تساهل الحافظ ابن كثير فى نسبة هذه الفقرة للصحيحين . فإن البخارى روى أصل الحديث مرارًا، منها : (١٠/ ٣٨٩ ، ٤٢٨ ، ١١/ ٤٦٨ ، ٤٦٩ فتح) ، ولم يرو هذه الفقرة أصلا ، كما نص الحافظ ابن حجر فى الموضع الأخير على أنها من زيادات مسلم . وكذلك روى الإمام أحمد أصل الحديث (١٦٤٥٦ ، ١٦٤٦٣) ، ولم يرو هذه الجملة .

(٣) رواه الشيخان وأحمد وأبو داود ، من حديث أسماء بنت أبى بكر . ورواه مسلم أيضًا من حديث عائشة ـ كما فى الفتح الكبير (٣ / ٢٥٣) . وهو فى صحيح مسلم من حديثيهما (٢/ ١٦٧).

(٤) المسند (٢٧١٢) والبخارى (٨/ ١٧٥ ، ١٧٦ فتح) .

obeikandi.com

رسول الله ﷺ كان إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو وتخلّفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ، فإذا قدم رسول الله ﷺ من الغزو اعتذروا إليه وحلفوا، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فنزلت: ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ ورواه مسلم بنحوه [١].

وقوله: ﴿فَلا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ﴾ يقرأ بالتاء على مخاطبة المفرد، وبالياء على الإخبار عنهم، أي: لا يحسبوا أنهم ناجون من العذاب، بل لابد لهم منه؛ ولهذا قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ثم قال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: هو مالك كُل شيء، والقادرُ على كُل شيء ،فلا يعجزه شيء، فهابوه ولا تخالفوه، واحذروا نقمته وغضبه، فإنه العظيم الذى لا أعظم منه، القدير الذى لا أقدر منه.

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ ﴾

معنى الآية : أنه يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: هذه فى ارتفاعها واتساعها، وهذه فى انخفاضها وكثافتها واتضاعها، وما فيهما من الآيات المشاهدة العظيمة من كواكب سيارات، وثوابتَ وبحار، وجبال وقفار وأشجار ونبات وزروع وثمار، وحيوان ومعادن ومنافع، مختلفة الألوان والطعوم والروائح والخواص ﴿وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أى: تعاقبهما وتقارضهما الطول والقصر، فتارة يطُول هذا ويقصر هذا، ثم يعتدلان، ثم يأخذ هذا من هذا فيطول الذى كان قصيرا، ويقصر الذى كان طويلا، وكل ذلك تقدير العزيز الحكيم؛ ولهذا قال: ﴿لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ أي: العقول التامة الذكية التى تدرك الأشياء بحقائقها على جلياتها، وليسوا كالصم البُكْم الذين لا يعقلون الذين قال الله فيهم: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ. وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥، ١٠٦].

ثم وصف تعالى أُولى الألباب فقال: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ كما ثبت فى صحيح البخارى عن عِمْران بن حُصَين، أن رسول الله ﷺ قال: «صلِّ قائما، فإن لم تستطع فقاعدا، فإن لم تستطع فعلى جنب» [٢]، أى: لا يقطعون ذكره فى جميع أحوالهم بسرائرهم وضمائرهم وألسنتهم ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أى: يفهمون ما فيهما من الحكَم الدالة على عظمة الخالق وقدرته، وعلمه وحكمته، واختياره ورحمته.

---

(١) البخارى (٨ / ١٧٥ فتح).

(٢) البخارى (٢/ ٤٨٣ ، ٤٨٤ فتح) . والثابت فى المخطوطة الأزهرية هو ما أثبتنا نسبته للبخارى فقط . وفى المطبوعة نسبته للصحيحين ، وهو خطأ يقينا ، فقد نص الحافظ فى الفتح (٢/ ٤٨٦) على أنه من أفراد البخارى دون مسلم . وكذلك نسب للبخارى وحده فى ذخائر المواريث والجامع الصغير .

وقد ذمّ الله تعالى مَنْ لا يعتبر بمخلوقاته الدالة على ذاته وصفاته وشرعه وقدره وآياته، فقال: ﴿وكأين مّنْ آيةٍ في السَّموَات والأرض يمرُّون عليْها وهُمْ عنْها مُعْرضُون. وما يُؤْمنُ أكثرُهم بالله إلاَّ وهُم مُّشْركُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥، ١٠٦]، ومدح عباده المؤمنين: ﴿الَّذين يذْكُرُون اللَّهَ قيامًا وقُعُودًا وعلَىٰ جُنُوبهمْ ويتفكَّرُون في خلْق السَّموَات والأرض﴾ قائلين: ﴿ربَّنا ما خلقْت هذا باطلاً﴾ أي: ما خلقت هذا الخلق عَبَثاً، بل بالحق لتجزى الذين أساؤوا بما عملوا، وتجزى الذين أحسنوا بالحسنى. ثم نزهوه عن العبث وخلق الباطل فقالوا: ﴿سُبْحانك﴾ أي: عَنْ أن تخلق شيئا باطلا ﴿فقنا عذاب النَّار﴾ أي: يا من خَلَق الخلق بالحق والعدل يا من هو مُنَزّه عن النقائص والعيب والعبث، قنا من عذاب النار بحولك وقوتك وقَيضْنَا لأعمال ترضى بها عنا، ووفقنا لعمل صالح تهدينا به إلى جنات النعيم، وتجيرنا به من عذابك الأليم.

ثم قالوا: ﴿ربَّنا إنَّك من تُدْخل النَّار فقدْ أخْزيْتهُ﴾ أي: أهنته وأظهرت خزيه لأهل الجمع ﴿وما للظَّالمين منْ أنصار﴾ أي: يوم القيامة لا مُجير لهم منك، ولا مُحيد لهم عما أردت بهم ﴿ربَّنا إنَّنا سمعْنا مُناديًا يُنادي للإيمان﴾ أي: داعيا يدعو إلى الإيمان، وهو الرسول ﷺ ﴿أنْ آمنوا بربكُمْ فآمنا﴾ أي يقول: ﴿آمنوا بربكُمْ فآمنا﴾ أي: فاستجبنا له واتبعناه ﴿ربَّنا فاغْفرْ لنا ذُنُوبنا﴾ أي: بإيماننا واتباعنا نبيك ، أي: استرها ﴿وكفّرْ عنّا سيّئاتنا﴾ أي: فيما بيننا وبينك ﴿وتوفَّنا مع الأبْرار﴾ أي: ألحقنا بالصالحين ﴿ ربَّنا وآتنا ما وعدتَّنا علَىٰ رُسُلك﴾ قيل: معناه: على الإيمان برسلك. وقيل: معناه: على ألسنة رسلك. وهذا أظهر. ﴿ولا تُخْزنا يوْم الْقيامة﴾ أي: على رؤوس الخلائق ﴿إنَّك لا تُخْلفُ الْميعاد﴾ أي: لابد من الميعاد الذى أخبرتَ عنه رسُلَك، وهو القيام يوم القيامة بين يديك. وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يقرأ هذه الآيات العشر من آخر آل عمران إذا قام من الليل لتهجده، فروى البخارى، عن ابن عباس قال: بت عند خالتى ميمونة، فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة ،ثم رقد، فلما كان ثُلث الليل الآخر قَعد فنظر إلى السماء، فقال: ﴿إنَّ في خلْق السَّموَات والأرض واخْتلاف اللَّيْل والنَّهار لآيات لأُولي الألْباب﴾ ، ثم قام فتوضأ واستن. فصلى إحدى عَشْرَة ركعة. ثم أذّن بلالٌ فصلى ركعتين، ثم خرج فصلى بالناس الصبح ورواه مسلم (١).

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿فاسْتجاب لهُمْ ربُّهُمْ﴾ أي: فأجابهم ربهم، كما قال الشاعر:

وداعٍ دعا: يَا مَن يجيب إلى النّدى ... فَلم يَسْتجبْه عنْد ذاك مجيب(٢)

روى سعيد بن منصور عن أم سلمة أنها قالت: يا رسول الله، لا نَسْمَع اللهَ ذَكَر النساء فى الهجرة بشىء؟ فأنزل الله تعالى: ﴿فاسْتجاب لهُمْ ربُّهُمْ أنّي لا أُضيعُ عمل عاملٍ مّنكُم مّن ذكرٍ أوْ أُنثىٰ﴾ إلى آخر الآية. وقالت الأنصار: هى أول ظعينة قَدمت علينا . ورواه الحاكم ثم قال: صحيح على شرط البخارى، ولم

(١) البخارى (٨/١٧٦، ١٧٧ فتح) ، ورواه فى مواضع أخر ، ورواه مسلم (١ /٢١١ ـ ٢١٤) من طرق متعددة ، ورواه أحمد فى المسند مرارا ، منها : (٢١٦٤ ، ٣٣٧٢) .

(٢) هو لكعب بن سعد الغنوى، من الأصمعية (١٤) بتحقيقنا . وذكره الطبرى فى التفسير مرارا ، منها: (١/ ٣٢٠ ، ٧ / ٤٤٨) بتحقيقنا .

يخرجاه [١].

ومعنى الآية: أن المؤمنين ذوى الألباب لما سألوا ـ مما تقدم ذكره ـ فاستجاب لهم ربهم ـ عقيب ذلك بفاء التعقيب، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقوله: ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ هذا تفسير للإجابة، أى: قال لهم مُجيباً لهم: أنه لا يضيع عمل عامل لديه، بل يُوَفِّى كل عامل بقسط عمله، من ذكر أو أنثى.

وقوله: ﴿بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ أى: جميعكم فى ثوابى سَواء ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ أى: تركوا دار الشِّرك وأتوا إلى دار الإيمان وفارقوا الأحباب والخلان والإخوان والجيران ﴿وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ﴾ أى: ضايقهم المشركون بالأذى حتى ألجؤوهم إلى الخروج من بين أظهرهم؛ ولهذا قال: ﴿وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي﴾ أى: إنما كان ذنْبهم إلى الناس أنهم آمنوا بالله وحده، كما قال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [الممتحنة: ١]. وقال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

وقوله: ﴿وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا﴾ وهذا أعلى المقامات أن يقاتل فى سبيل الله، فيُعْقَر جَواده، ويعفَّر وجهه بدمه وترابه، وقد ثبت فى الصحيح أن رجلا قال: يا رسول الله، أرأيت إن قُتلت فى سبيل الله صابرا مُحْتَسِباً مُقْبلا غير مُدبر، أيُكَفِّر الله عنى خطاياى؟ قال: «نعم» ثم قال: «كيف قلت؟»: فأعاد عليه ما قال، فقال: «نعم، إلا الدَّين، قاله لى جبريل آنفاً» [٢]. ولهذا قال تعالى: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أى: تجرى فى خلالها الأنهار من أنواع المشارب، من لبن وعسل وخمر وماء غير آسن وغير ذلك، مما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أذن سَمِعت، ولا خَطَر على قلب بَشَر.

وقوله: ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أضافه إليه ونسبه إليه ليدل على أنه عظيم؛ لأن العظيم الكريم لا يعطى إلا جَزيلا كثيرًا. وقوله: ﴿وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ أى: عنده حُسْن الجزاء لمن عمل صالحا.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾

يقول تعالى: لا تنظروا إلى ما هؤلاء الكفار مُتْرفون فيه، من النِّعْمَة والغِبْطَة والسرور، فعَمَّا قليل يزول هذا كله عنهم، ويصبحون مُرتَهنين بأعمالهم السيئة، فإنما نَمُدّ لهم فيما هم فيه استدراجا، وجميع ما هم فيه ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ [غافر: ٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ. مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠]، وقال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق: ١٧]، أى:

---

(١) المستدرك (٢/ ٣٠٠) ورواه الطبرى أيضا بنحوه (٨٣٦٧ ـ ٨٣٦٩). وفصلنا تخريجه هناك.

(٢) رواه مسلم مطولا (٢/ ٩٧، ٩٨) من حديث أبى قتادة. ورواه أيضا أحمد فى المسند (٥/ ٣٠٣، ٣٠٤ حلبى) والترمذى (٣/ ٣٥، ٣٦) والنسائى (٢/ ٦٢). وذكره المنذرى فى الترغيب (٢/ ١٨٩، ١٩٠). وفى المطبوعة: «وقد ثبت فى الصحيحين» وهو خطأ، صوابه من المخطوطة، ويؤيده أنه لم يروه البخارى.

قليلا ، وقال تعالى : ﴿أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين﴾ [القصص: ٦١]، وهكذا لما ذكر حال الكفار في الدنيا وذكر مآلهم إلى النار ـ قال بعده: ﴿لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلا﴾ [أي: ضيافة] ﴿من عند الله وما عند الله خير للأبرار﴾ .

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠) ﴾

يخبر تعالى عن طائفة من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالله حق الإيمان، وبما أنزل على محمد، مع ما هم يؤمنون به من الكتب المتقدمة، وأنهم خاشعون لله، أي: مطيعون له خاضعون متذللون بين يديه﴿لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا﴾ أي: لا يكتمون ما بأيديهم من البشارات بمحمد ﷺ، وذكر صفته ونعته ومبعثه وصفة أمته، وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم، سواء كانوا هوداً أو نصارى. وقد قال تعالى في سورة القصص: ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون. وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين. أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا﴾ الآية [القصص: ٥٢ ـ ٥٤]، وقال تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به﴾ الآية [البقرة: ١٢١]، وقال: ﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ [الأعراف: ١٥٩]، وقال تعالى: ﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾ [آل عمران: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا. ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا. ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا﴾ [الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩]، وهذه الصفات توجد في اليهود، ولكن قليلا، كما وجد في عبد الله بن سلام وأمثاله ممن آمن من أحبار اليهود، ولم يبلغوا عشرة أنفس، وأما النصارى فكثير منهم مهتدون وينقادون للحق، كما قال تعالى: ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون. وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين. وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين. فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ الآية [المائدة: ٨٢ ـ ٨٥]، وهكذا قال هاهنا : ﴿ أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب ﴾ . وثبت في الصحيحين أن النجاشي لما مات نعاه النبي ﷺ إلى أصحابه ، وقال : « إن أخا لكم بالحبشة قد مات فصلوا عليه » . فخرج إلى الصحراء، فصفهم ، وصلى عليه . وروى ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أنس بن مالك قال : لما توفي النجاشي قال رسول الله ﷺ : «استغفروا لأخيكم». فقال بعض الناس: يأمرنا أن نستغفر لعلج مات بأرض الحبشة . فنزلت : ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله ﴾ الآية [(١)]. وروى الحاكم عن عبد الله بن الزبير قال : نزل بالنجاشي عدو من أرضهم، فجاءه المهاجرون فقالوا: إنا نحب أن نخرج إليهم حتى نقاتل معك ، وترى جرأتنا ، ونجزيك بما صنعت بنا . فقال : لا ، داء بنصرة الله عز وجل خير من دواء بنصرة الناس. قال: وفيه نزلت: ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن

---

(١) ذكره الهيثمي في الزوائد (٣/٣٨) بنحو معناه، وقال: «رواه البزار والطبراني في الأوسط، ورجال الطبراني ثقات».

بالله **وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾** الآية، ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه (١). وقد ثبت في الصحيحين، عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يُؤتَوْنَ أجرَهم مرتين» فذكر منهم: «ورجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي».

وقوله: **﴿لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾** أي: لا يكتمون ما بأيديهم من العلم، كما فعله الطائفة المرذولة منهم، بل يبذلون ذلك مجانا؛ ولهذا قال: **﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾**. قال مجاهد: **﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾** يعني: سريع الإحصاء.

وقوله: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾** قال الحسن البصري: أمروا أن يصبروا على دينهم الذي ارتضاه الله لهم، وهو الإسلام، فلا يدعوه لسرّاء ولا لضرّاءَ ولا لشِدَّة ولا لرخَاء، حتى يموتوا مسلمين، وأن يصابروا الأعداء. وكذا قال غير واحد من علماء السلف.

وأما المرابطة فهي المداومة في مكان العبادة والثبات. وقيل: انتظار الصلاة بعد الصلاة، قاله ابن عباس وسهل بن حُنَيف، ومحمد بن كعب القُرَظي، وغيرهم. وروى ابن أبي حاتم هاهنا الحديث الذي رواه مسلم والنسائي عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟ إسباغُ الوضوء على المكاره، وكثرة الخُطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرِّباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط» (٢).

وقيل: المراد بالمرابطة هاهنا مرابطة الغزو في نحر العدوّ، وحفظ ثُغور الإسلام وصيانتها عن دخول الأعداء إلى حَوْزَة بلاد المسلمين، وقد وردت الأخبار بالترغيب في ذلك، وذِكْر كثرة الثواب فيه، فروَى البخاري في صحيحه عن سَهْل بن سَعْد الساعدي: أن رسول الله ﷺ قال: «رِبَاط يوم في سَبِيل الله خير من الدنيا وما عليها». وروى مسلم عن سَلْمان الفارسي، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «رباطُ يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإنْ مات جَرَى عليه عمله الذي كان يعمله، وأُجْرِيَ عليه رزقُه، وأمِنَ الفتَّان». وروى الإمام أحمد عن فُضالة بن عُبيد عن رسول الله ﷺ قال: «كل ميّت يُخْتَمُ على عمله، إلا الذي مات مُرَابطاً في سبيل الله، فإنه ينمو له عملُه إلى يوم القيامة، ويأمن فتنة القبر». وهكذا رواه أبو داود، والترمذي. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وأخرجه ابن حبان في صحيحه أيضاً (٣). وروى البخاري عن أبي هريرة، قال: قال النبي ﷺ: «تَعس عبد الدينار، تَعس عبد الدِّرْهَم وعبد الخَميصة، إن أُعْطِيَ رضي، وإن لم يُعْطَ سَخط، تَعس وانتكَسَ، وإذا شيك فلا انْتَقَش، طُوبَى لعَبد أخذ بعنان فَرَسه في سبيل الله، أشعثَ رأسُهُ، مُغْبَرَّة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في السَّاقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤْذن له، وإن شَفَع لم

---

(١) المستدرك (٢/ ٣٠٠) ووافقه الذهبي على تصحيحه.

(٢) مسلم (١/ ٨٦) ورواه أحمد في المسند مرارا، بنحوه، منها: (٧٢٠٨، ٧٧١٥، ٨٠٠٨) ورواه أيضًا الطبري (٨٣٩٧، ٨٣٩٨). وفصلنا تخريجه في الكتابين.

(٣) المسند (٦/ ٢٠ حلبي) والترمذي بشرح المباركفوري (٣/ ٢).

openkanz.com

يُشفَّعْ»[١].

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي : في جميع أموركم وأحوالكم ، كما قال النبي ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: « اتَّقِ الله حَيْثُما كُنْتَ، وأتْبِع السيئَة الحسنة تَمْحُها ، وخالق الناس بخُلُق حَسَنٍ» [٢].

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة.

آخر تفسير سورة آل عمران، ولله الحمد والمنة

نسأله الموت على الكتاب والسنة

obeikandl.com

---

(١) البخاري (٦/ ٦١، ٦٢ فتح) . وقوله : « وانتكس » : أي عاوده المرض . وقوله : « وإذا شيك فلا انتقش » ـ قال الحافظ في الفتح : « شيك : بكسر المعجمة وسكون التحتانية بعدها كاف . وانتقش : بالقاف والمعجمة . والمعنى : إذا أصابته الشوكة فلا وجد من يخرجها منه بالمنقاش . تقول : نقشت الشوك ، إذا استخرجته » . وقوله : « إن كان في الحراسة » ـ إلخ ـ قال ابن الجوزي : « المعنى : أنه خامل الذكر ، لا يقصد السمو ، فإن اتفق له السير سار . فكأنه د ■ إن كان في الحراسة استمر فيها ، وإن كان في الساقة استمر فيها » . وقد ذكر الحافظ ابن كثير في فضل الرباط أحاديث كثيرة ، اقتصرنا على أصحها . وفيه الكفاية ، إن شاء الله .

(٢) هو الحديث الثامن عشر من الأربعين النووية ، وهو من حديث أبي ذر ومعاذ . رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن ، وفي بعض النسخ : حسن صحيح ، كما قال النووي رحمه الله .